بِلادُ يَنبُع

لمحاتٌ تاريخيَّة جغرافيَّة وَانطباعاتٌ خاصَّة

بقلم: حمد الجاسر





لمحات تاريخية جغرافية وانطباعات خاصة

بقلم: حمد الجاسر



هذه معلومات ، تتعلق ببلاد يَنْبُع ، ليست تاريخاً مسلسل الحوادث ، مرتب النتائج ، وليست وصفاً شاملًا لما عليه تلك البلاد من مختلف الاحوال، من اجتماعية وجغرافية ، واقتصادية.

ولكنها معلومات متفرقة ، سجلتها في فترات مختلفة ، عن جزء حبيب من بلادنا الكريمة، اقمت فيه بضع سنوات، فالفت الاقامة فيه ، والفت اهله ، واحببته واحببت اهله ، فعبرت عن هذه المحبة وعن تلــك الالفة، بتقديم هذه المعلومات لمن يعنيه البحث في تاريخ تلك البلاد ، لعله يجد فيهـــا ما يدفعه الى التعمق في البحث لكتابة تاريخها كاملاً .



المقدمة

وقوع هذه البلاد في منطقة تقرب من المدينة المنورة وعلى طريق قوافل قريش التي تتجه الى الشام ابان عصر النبوة، جعل المؤرخين المتقدمين يولونهـــا قدراً يسيراً من العناية، فترد في كتبهم وفي كتب الجغرافيين المتقدمين اشارات موجزة، ونبذ قصيرة عنهـــا، عند الحديث عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وذكر سراياه.

ولقربها من المدينة عني جغرافيو العرب بذكر بعض مواضعها باعتبارها معدودة في منطقة المدينة. كـــما في كتابي « المغانم المطابة في معالم طابة » و « وفاء الوفاء في تاريخ دار المصطفى ».

وفي كتب الادب طرف من انباء تلك البـــلاد، ذلك ان شاعراً من ابرز شعراء العهد الاموي ملأ شعره باسماء مواضع في جهات ينبع، منها، وبقربها، هو الشاعر كثيّر، فعني شراح

شعره كابن السكيّت وغيره بتحديد بعض تلك المواضع .

ولما اصبح طريق الحج المصري ، يأخذ الساحل . من العقبة الى مكة ، فصار يمر بتلك البلاد ، ورد في كتب الرحلات التي تصف ذلك الطريق معلومات عنها كما في «درر الفوائد المنظمة في اخبار الحج وطريق مكة المعظمة» للجزيرى المصري و «الحقيقة والمجاز» للنابلسي ، وفي رحلتي القطبي المكي ، وكبريت المدني ، وغيرهم .

وقد الف السيوطي رسالة عن ينبع – على ما ذكر القطبي – الا انها غير معروفة الآن لدي .

تلك هي المصادر التي قد تمد الباحث بشيء من اخبار هذه البلاد وتصف له بعض معالمها ومواضعها .

من بعضها استقينا المعلومات التي نرى عرضها بنصوصها فائدة للقارىء اكثر مما لو حاولنا تلخيصها وصياغتها صياغة جديدة ، ذلك اننا كثيراً ما نرى من يعمدون الى هذه الطريقة يفهمون من النصوص ما لا تدل عليه، ويحملونها ما لا تحتمله من المعاني ، يضاف الى هذا ان الباحث قد يحتاج الى معرفة النص الكي يستخلص منه حسب فهمه ، ووفق رغبته مايريد استخلاصه ، ولنقدم للمعنيين بتاريخ هذه البلاد اصولا يرجعون اليها فيما يريدون .

القسم الأول: بلاد ينبع النخل

ينبع بصيغة الفعل المضارع ، سمي بذلك لكثرة ينابيعه [1] اي عيونه .

ويطلق هذا الاسم على ناحية واسعة في الحجاز ، غرب المدينة المنورة ، بميل نحو الشمال وتبعد عنها بمسافة تقرب من مائة وخمسين كيلا .

وتقع هذه الناحية من خط الشمال العرضي بين الدرجة : ــ ٢٤ والدرجة ٣٠ / ٢٤ ومن خط الطول (شرق جرينتش) الدرجة : ٣٨ والدرجة ٣١ / ٣٨ .

ولينبع شهرة كبيرة في كتب التاريخ ، في حوادث صدر الاسلام ، لوقوعه على طريق القوافل التجارية بين الحجاز وبين الشام ، فكان وما يقرب منه من المواضع ميداناً لمناوشات كثيرة بين الرسول صلى الله عليه وسلم واصحابه ، وبين قريش وبعض القبائل التي كانت تسكن تلك النواحي وكثير منها كان ينتهي بغير قتال .

ومن تلك الغزوات : غزوة العُشيرة وغزوة بُواط ، وسرية العيص

---

(١) معجم البلدان (مادة ينبع)

ومن ينبع عرف التاريخ عدداً من الرجال المشهورين منهم :

حرملة المدلجي من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكشد بن مالك الجهني وابن اخيه اللذين اقطعهما رسول الله (ص) ينبع .

ومحمد بن صالح الحسني من اهل القرن الثالث الهجري من (سويقة) من مشاهير الشجعان ، ومن الشعراء المجيدين ، ترجمه صاحب الاغاني في (الاغاني) وفي (مقاتل الطالبيين) . ومن شعرائها العباس بن الحسن من اهل القرن الثاني الهجري . ومن الجغرافيين : مسعر بن مهلهل الخزرجي من اهل القرن الرابع له رحلة الى بلاد الشرق الاقصى نقل ياقوت قسما كبيراً منها في (معجم البلدان) وقد نشرت في مجلد لطيف ، وقد ترجمته بمقال نشرته مجلة المنهل قبل ربع قرن من الزمن .

والشريف قتادة الذي أسس دولة الاشراف في مكة في القرن السادس الهجري وله ترجمة في كثير من الكتب التاريخية .

ومن ينبع انتقل جدّ الاسرة العلوية الحاكمة في المغرب في القرن السابع

ويرد اسم ينبع في كتب المتأخرين في صور متعددة : (ينبع) وهو الصواب و (الينبع) و (الينبوع) . وهما تحريف للاول ، ويكثر هذا في مؤلفات اهل القرن

الثامن الهجري فما بعده كالمقريزي وابن تغري بردي والقطبي وابن إياس الحنفي ، والنابلسي وغيرهم .

ويطلق اسم ينبع في العهد الحاضر وقبله بزمن على (ينبع) الميناء ، واذا اريد ينبع النخل قيل (ينبع النخل) .

الا ان اسم ينبع عند اطلاقه في كتب المتقدمين يقصد به الاخير ، لان ينبع الميناء او (ينبع البحر) كما يسمى ايضاً ، كان اقل شهرة بل قلّ ان يوجد له ذكر في كتب الجغرافية القديمة كمعجم البلدان ، ومعجم ما استعجم ، باستثناء اشارات موجزة تشير الى ميناء ينبع ، اشارات غامضة ولاسيما عندما يكون الحديث في تحديد البحر (بحر القلزم) فيعدون من موانئه : جدة — الجار — ينبع — مدين —

وكثيراً ما يحدد الجغرافيون المتقدمون بعض المواضع بانه في ينبع او بقربه او منه وهم يقصدون الناحية الواسعة ، ومما ذكروه من المواضع :

● أبار ، وأبير : من اودية الاجرد — جبل جهينة — يصبان في ينبع . وانظر وحد وصفاً دقيقاً لجبل الاجرد في معجم ما استعجم للبكري ؛ ويظهر انه نقله عن الهجري ، وفاته التنبيه على ذلك

كما فعل فيما نقل من وصف حمى « ضريّة »

● الأشْمَر - جبل جهينة المعروف وقد اوفى البكري الكلام عليه وفيما نظن أنه نقله عن الهجري ايضاً بواسطة السكوني، وقد نقل السيد السمهودي في «وفاء الوفاء» ان سيل الاجرد ينحدر الى ينبـــع .

● البَثْنَة : ارض تلقاء سويقة، اعتملها عبدالله بن حسن بن حسن بن علي بن ابي طالب ، بمال امرأته هند بنت ابي عبيدة بن عبدالله بن زمعة ، واجرى عيونها وهي البثنات وكان قبل ان ينكحها مُقلا ، فلما عمرت البثنات قال لها : ما خطوت مـــن البثنة فهو لك ، فمشت طول الخيف في عرض ثلاثة اسطر مـن النخل ، فهو حق ابنها موسى منه الذي يقـــال له الشقة الذي خاصمه فيه اخوته من غيرها . قاله البكري

ووهم البكري فقال (بالمدينة) والمتقدمون كثيراً ما يضيفون المواضع المجهولة الى اقرب موضع معروف منها ، وان كان بعيداً عنها .

ولا تزال البثنة معروفة وهي احدى عيون ينبع المشهورة .

● بِرْك : قال ابن السكيت في شرح قول كُثيّر :

فقد جعلت اشجان برك يمينها

وذات الشمال من مرَيْخة أشأما

قال الاشجان : مسايل الماء . وبرك هاهنا نقب يخرج من ينبع الى المدينة عرضه نحو من اربعة اميال او خمسة ، وكان يسمى مُبركاً فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم

● البَرَكة : من عيون ينبع ذكرها الفيروز آبادي . ولاتزال معروفة .

● وذكر البُغَيْبغَة من بـــلاد ينبع التي كانت لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه وهي مجموعة من العيون من اشهرها : خيف الاراك وخيف ليلى وخيف نسطاس

● البُلَيْد : قرية لآل علي ، يدفع واديها في ينبع ، قال كثيّر :

نزول باعلى ذي البُلَيْد كأنها

صرِيمة نخل مُغْطَئِلٍ شكيرها

● بولا : اسم عين العشيرة (وسيأتي الكلام عليها)

● خُبزة : حصن من اعمال ينبع

● الخُبَيب : اسفل سيل ينبع حين واجه البحر .

● خَريق : واد عند الجار متصل بينبع

● الخُضَيْراء : قرية من اعمـــال ينبع ، بينها وبينه ثلاث مراحل ،ذكرها القطبي في رحلته ، ولهـــا ذكر كثير في كتب الرحلات لوقوعها بطريق الحج .

● خَفَيْنُ . موضع ذكره كثير في شعره .

وذكر البكري ان لهذا الوادي شعبتين . شعبة تدفع في ينبع ، والاخرى تدفع في الخَشْرَمةِ ، والخَشْرَمةُ تدفع في البحر

● سُوَيقَةَ . يطلق هذا الاسم على امكنة كثيرة ، ولكن اشهرها سُوَيْقَةُ ينبع لها ذكر كثير في كتب التاريخ والادب لانها كانت من منازل الطالبيين ، الذين قاموا بثورات متعددة على الخلفاء العباسيين في فترات مختلفة من الزمن .

ثم في العصور الاخيرة كانت القبائل التي تسكنها كثيراً ما تقوم ببعض الاعمال التي تعكر صفو الأمن وتُقلقُ ولاة الحجاز او امراء الحج .

ولهذا فقد تعرضت هذه البلدة للتخريب ، وقطع النخيـل وهدم البيوت مرات منها :ـ

١ ـ ما حدث لها بعد القضاء على ثورة النفس الزكية ، محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب ، الذي ثار

في المدينة ايام المنصور [1] (سنة ١٤٥ وقتل في شهر رمضان من تلك السنة).

وخربت سويقة ، وعُرقب نخلها ، وصودرت اموال محمد وآله من الطالبيين .

٢ – عندما ثار محمد بن صالح في سنة ٢٤٤ (في عهد الخليفة المتوكل) وجرى لتلك البلدة كما جرى لها في عهد المنصور – وستأتي الاشارة الى شيء من ذلك .

٣ – في سنة ١١٠٥ عندما خربها شريف مكة وقطع نخيلها – كما جاء في رحلة النابلسي ، مما سنذكره فيما بعد ومع كل النكبات فقد صمدت وصبرت وبقيت الى عهدنا هذا .

● الصّفراء . نقل ياقوت وغيره ان واديها يصب في ينبع واصل هذا القول لعرّام بن الاصبغ في رسالته المعروفة ، ولكن المشاهد في المصور الجغرافي ان سيلها يصب في (الرايس) موقع ميناء (الجار) القديم .

● عَبَاثِرُ ، نَقْبٌ ينحدر من جبل جهينة ، يسلكه من خرج من إضم يريد ينبع ، هو وقاعِس والمناخ ومنزل ، كلها أنقُب

(١) انظر تفصيل ثورته في تاريخي ابن جرير وابن الاثير حوادث سنة ١٤٥
(٢) مقاتل الطالبيين « ص ٢٩٨ / ٣٠٤ »

يؤدين الى ينبع ، نقل هذا ياقوت عن ابن السكيت .

● عرِمُ ، وادٍ ينحدر من ينبع في قول كُثَيِّر :—

بيَضْاءُ من عُسُلٍ ذَوْرَةٍ ضَرَبٍ
شُجَّتْ بِماءِ القِلاتِ من عرِمِ

ذَوْرَةُ : جَبَلٌ وعُسُلٌ : جمع عَسَلٍ ، فى لغة هذيل ، وخزاعة وكنانة — كذا نقل ياقوت

● العُشَيْرَة ، موضع فى ينبع ، غزاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يلق كيداً . وقد اقطع عليه الصلاة والسلام علياً رضى الله عنه بذي العشيرة ، واشتهر هذا الموضع بجودة التمّر بحيث يفضل تمره على سائر تمور الحجاز ، الا الصيحاني بخيبر ، والبرني والعجوة بالمدينة .

وقد سلك الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة العشيرة ثنية بواط ، التي بين الجبلين ، بواط الجلسي ، وبواط الغوري .

ولرسول الله صلى الله عليه وسلم في ذي العشيرة مَسْجِدٌ كان معروفاً الى عهد قريب .

ويفهم من كلام السيد السمهودي ومن تقدّمه ان عين العشيرة تُعْرَفُ بعين بَوْلاَ ، وان رسول الله صلى الله عليه

وسلم صلىّ في مسجدها ، وهو المعروف بمسجد ينبع ، ومسجد العُشَيرة .

ثم اصبحت عَيْن بولا من أملاك علي رضي الله عنه .

ووصف البشاري العشيرة بأنها قرية صغيرة على الساحل قبال ينبع ، عندها نخيلات ، وليس لخانها نظير .

قال الجزيري [1] : من اهل القرن العاشر : (ومسجد العشيرة معروف ببطن ينبع ، وهو مسجد القرية التي ينزلها الحاج المصري في وروده وصدوره ، والعين اليوم جارية عنده لكن لا تعرف بهذا الاسم) .

- النُجَيْل - تصغير نجل [2] - من اعراض المدينة من أسفلى ينبع ، قال كثير : -

وحتى أجازت بطن ضاس ودونها

دعان ، فهضبا ذي النُجيل فينبُعُ

● العلقمية : منها خرج ولاة مكة في القرن السادس الشريف قتادة وبنوه فكونوا إمارة كبيرة في مكة .

---

(١) درر الفوائد « ص ٥٣٤ » .

(٢) معجم البلدان .

● عَيْنُ ابي نَيْزَرَ .

● عَيْنُ البُحَيْر .

● عَيْنُ عَلي .

● عَيْنُ نَوْلا (أَوْ بَوْلا)

هـــذه العيون الاربع من عيون الامام علي بن ابي طالب رضي الله عنه في ينبع ، وقد دَرَسَتْ ، وتغيرتْ اسماءهــا ، سوى عَيْنِ علي ، فلا تزال باقية معروفة ، وقد ذكرها الفيروز آبادي في (المغانم) .

وابو نَيْزر المنسوبة اليـــه العين كان من موالي علي رضي الله عنه .

نَخَلي : ـ بفتح الخاء واللام ـ واد كبير ، من اشهر أودية ينبع ، وهو فيما بينها وبين وادي الصفراء ، وقد ذكره ياقوت ، والفيروز آبادي في (المغانم المطابة) والسمهودي في (وفـــاء الوفاء) وغيرهم .

ولا يزال معروفاً ، وكان فيه عدد كبير من العيون منها: البثنة ، والبقاع ، ومدسوس ، ومُدَيْسيس ، والنُجَيْل ـ بالجيم ـ واليسيرة، ولكن اكثر هذه العيون قد بدأها الخراب .

وقد ذكر البكري (نخلى) هذه في (معجم ما استعجم) فصحف الاسم الى (نَمَلى) بالمـــيم بدل الجيم ، ونملى — بالميم موضع في عالية نجد ، غير هذا الوادي .

وهذا نَصُّ كلامه وهـــو يتحدث عن (الأشعر) جبل جُهَيْنَةَ : ومن اودية الاشعر الغَوْرية : نَمَلى ، وهي تصب على ينبع ، وبها بئران يقال لهما بئرا الصَّريح ، واحدة لبني زيد بن خالد الحراميين ، والأخرى للكليبيين وبأسفل نَملى عُيُون الحسين بن علي بن حسين ، منها ذات الأسيل ،

وبأسفل نَمَلى البلدة والبُلَيْد ، وبها عينان لبني عبدالله بن عَنْبَسَة بن سعيد بن العاص .

وقد ذكر كُثَيِّرٌ البُلَيْد ، فقال :

فأتبعتُهُمْ عينيَّ حتى تلاحَمَتْ
عليها قِنانٌ مِنْ « خَفَيْنَنَ » جُونُ

وقد حال من حَزْم « الحماتَيْنِ » دونَهُمْ
وأعرَضَ من وادي « البُلَيْدِ » شُجُون

وفاتَتْكَ ظعْنُ الحيِّ لمـــا تقاذَفَتْ
ظُهورٌ بهـــا من « يَنْبُعٍ » وبطونُ

انتهى كلام البكري .

● يَلَنْيَل : ذكر كثير من المتقدمين – عَـرّام بن الأصْبَع السلمي ، فمَنْ بعده – أن وادي يَلَنْيَل يصب في البحر ، عند يَنْبع ، وأن اعلاه وادي الصَّفْراء .

والمعروف أن يَلَنْيَل هو وادي بَدْر ، ووادي بَدْر يَصُبُّ في (الرّائس) المكان الذي يقع فيه (الجار) ميناء المدينـــة القديم ، وهو يقع جنوب ينبع ، ولعَلّ المتقدمـــين لاحظوا شمُول بلاد ينبع لمسافة تقرب أو تتصل بتلك الجهة .

هذه بعض الامكنة التي اضافها المتقدمون الى بـــلاد ينبع لمسافة تقرب أو تتصل بتلك الجهة .

وعدوها منها ، وهم يقصدون – عند الاطلاق مـــا يعرف الآن باسم (ينبع النخل) أو (ينبع النخيل) كما ذكر الهمداني في كتاب « صفة جزيرة العرب »

وسنفصّل بعض اخبارها مما وصل الينا – فيما بعد – .



ينبع النخل : — ناحية واسعة ، فيها قرى ، وأودية ،وعيون ماؤها عذب ، نقل البكري ان محمد بن عبد المجيد الصباح زعم أن بها مائة عين الا عينا ، وذكر ياقوت عن الشريف ابن سلمة بن عيّاش الينبعي انه قال : عددت بها مائة وسبعين عيناً .

وكانت ينبع من بلاد جهينة ، فلما اخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم اقطعها رجلاً منهم يدعى كُشْدَ بن مالك ، كان اجار طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد صاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما ارسلهما يترقبان عير قريش العائدة من الشام ، وفيها ابو سفيان .

ثم اشتراها عبد الرحمن بن اسعد بن زرارة الانصاري بثلاثين الفاً ، فلما اقام بها استوبأها ورمد بها ، فرجع عنها فاشتراها علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، واشتهر لعلي فيها ضيعتان : البُغَيْبِغَةُ ، وعَيْنُ ابي نَيْزر — نسبة الى مولى لعلي رضي الله عنه ، اشتراه بمكة ثم اعتقه فأسلم وعاش في بيت فاطمة رضي الله عنها ؛ وكان يقوم على مال علي في ينبع — قال ابو نيزر : جاءني علي وانا اقوم بالضيعتين ؛ عين ابي نَيْزَر ، والبُغَيْبِغَة ، فقال : هل عندك من طعام ، قلت : طعامٌ لا أرضاه لأمير المؤمنين ، قَرَعٌ من قَرَع الضَّيْعَة ، صنعته باهالةٍ سَنِخَةٍ ، فقال : عليَّ به ، ثم قام الى النَّهر فغسل يديه ، ثم أصاب من الطعام شيئاً ، ثم رجع الى النهر فغسل يديه بالرمل حتى انقاهما ، ثم شرب بهما من الماء وقال : يا ابا

نيزر ، إنَّ الأكُفَّ أنظفُ الآنية ، ثم مسح كفّيه على بطنه وقال : من ادخله بطنُه النارَ فأبعده الله ، ثم اخذ المعول ، وانحدرَ في العين ، وجعل يضرب وابطأ عليه الماء ، فخرج وقد تفضخ جبينه عَرَقاً ، فانتكف العرق عن جبينه ، ثم اخذ المعول ، وعاد الى العين ، واقبل يضرب فيها ، وجعل يُهَمْهِمُ ، فانثالت كأنها عُنُقُ جَزُورٍ ، فخرج مسرعاً ، وقال : أشهد الله انها صدقةٌ ، عليَّ بدواةٍ وصحيفةٍ ، قال : فعَجِلْتُ بهما اليه .

فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما تصدّق به عبدالله علي امير المؤمنين ، تصدق بالضيعتين المعروفتين بعَيْن ابي نَيْزَرَ ، والبُغَيْبِغَةِ ، على فقراء المدينة وابن السبيل ، ليقيَ اللهُ بهما وَجْهَهُ حرَّ النار ، يوم القيامة ، لا تُباعَا ، ولا تورثا ، حتى يرثهما الله ، وهو خيرُ الوارثين ، الا أن يحتاج اليهما الحسنُ أو الحُسين ، فهما طلقٌ لهُما ، ليس لاحدٍ غيرهما .

وذكر المبرد في الكامل : ان الحسين ركبه دينٌ ، فعرض عليه معاويةُ بعين ابي نيزرَ مائتيْ الف دينار ، فأبى ان يبيعها .

وكان وقف علي رضي الله عنه لها في السنة الثانية من خلافته .

وفي عهد معاوية اراد من عبدالله بن جعفر ان يزوج ابنته

ليزيد بن معاوية ، ولكن الحسين بن علي رضي الله عنهما — وهو خالها — رفض ذلك وزوجها ابن عمها القاسم بن محمد بن جعفر ، وأصدقها البُغَيْبغاتُ .

وفي سنة ١٤٥ خرج محمد بن عبدالله بن الحسن في المدينة على المنصور فأرسل اليه جيشاً قضى على ثورته ، وصادر أموال بني حسن وبني جعفر — ومنها املاكهم في ينبع — فسأل جعفر الصادق المنصور ان يرد عليه عين ابي زياد فأبى .

وفي عهد المهدي رُدّت الى اصحابها فلم تزل في يد آل عبدالله بن جعفر يتوارثونها ، من ناحية ام كلثوم بنت عبدالله بن جعفر ، يتوارثونها ، حتى استخلف المأمون ، فبلغه ذلك ،فقال : كلا ،هذه وقف علي بن ابي طالب على ولد فاطمة ، فانتزعها من ايديهم وعوضهم عنها ، وردّها الى ما كانت عليه .

وفي سنة ٢٤٤ في عهد الخليفة المتوكل خرج عليه (٢) محمد بن صالح بن عبدالله بن موسى بن عبـدالله بن حسن بن حسين

---

(١) تاريخ ابن جرير « حوادث سنة ١٤٥ » .

(٢) مقاتل الطالبيين « ٦٠٠ » معجم البلدان « مادة سويقة » وسمط النجوم العوالي « ٤/١٧١ » .

بن علي رضى الله عنهما فانفذ اليــه ابا الساج [1] في جيش ضخم ، فظفر به ، وبجماعة من اهله فأخذهم وقيدهم وقتل بعضهـم ، واخرب سويقة ، وهي منزلهم ، وكانت من جملة صدقات علي بن ابي طالب رضى الله عنه ، وعقر بهـــا نخلا كثيراً ، وخرب منازلهم ، وحمل محمد بن صالح الى سامراء .

ــ قال ياقوت بعد سياق ما تقدم ـ : وما اظن سويقة بعد ذلك أفلحت .

ومحمد بن صالح هذا من فتيان آل ابي طـــالب ، وفتاكهم وشجعانهم ، وشعرائهم ، حبسه المتوكل في (سر من رآى) ثلاث سنين ثم اطلقه ، ومات في ايام المقتدر .

وقد اورد الاصفهاني طائفـــة من شعره ، في (مقاتـل الطالبيين [2] وترجمه في (الاغاني) [3] ترجمة مطولة .

وذكر البكري عن اسماعيل بن جعفر قال : لقيني موسى بن عبدالله فقال لي هَلُمَّ حتى أريك ما صُنِعَ بنا في سُويقة ، فانطلقتُ معه فاذا بنخلها قد عُضِد من آخره ، ومصانعها قد خُرِّبت ، فخنقتني العبرة ، فقال : إليك ، فنحن والله كما

---

(١) إبو الساج ولاه المتوكل طريق مكة سنة ٢٤٤ « ابن الأثير »

(٢) مقاتل الطالبيين « ٦٠٠/٦١٦ » .

(٣) الاغانى « ١٥/٨٨ » .

قال دريدُ بن الصِّمَّةِ :

يقولُ : ألا تبكي اخاك ؟ وقد أرى
مكانَ البُكا ، لكِنْ جبلْتُ على الصَّبْرِ

(من قصيدة طويلة اوردها الاصفهاني في مقاتل الطالبيين — ص ٢٩٨) .

وقال سعيد بن عقبة[١] : نزلت ببطحاء سويقة ، فاستوحشت لخرابها ، الى ان خرج ضبع من دار عبدالله بن حسن فقلت : —

إني مَررْتُ على دار فأحزنني
لما مَررْتُ عليها ، مَنْظرُ الدّارِ

وحشاً ، خراباً ، كأنْ لمْ تغْنَ عامرةً
بخَيْرِ أهْلٍ ، لِمُعْتَدٍ ، وزُوّار

لا يُبْعِدُ اللهُ قوماً كانَ يَجْمَعُهُمْ
جَنْبا « سُوَيْقَةَ » أخْياراً لأخْيارِ

الرّافعينَ لساري الليلِ نارَهمُ
حتّى يَؤُمَّ على ضوْءٍ مِنَ النّارِ

---

(١) معجم ما أستعجم « ص ٧٦٨ »

والدافعين عن المحتاج خلته
حتى يجوز الغنى ، من بعد إقتار

ومن اموال علي بن ابي طالب – رضي الله عنه – العشيرة من ينبع ، وهي التي سميت الغزوة باسمها ، وكان موقعها بقرب عين البركة ، بل كانت عين البركة من بقية عيونها ، كما يفهم من كلام الفيروز آبادي في كتاب (المغانم) .

واقطع الخليفة عمر بن الخطاب الامام علياً رضي الله عنهما قطائع اخرى في ينبع ، واشترى امكنة اخرى فيها .

وقد استوطن علي رضي الله عنه ينبع ، قبل أن يلي الخلافة ، وكان بها معجباً ، ويروون عنه انه نظر الى جبالها فقال : لقد وضعت على نقب من الماء عظيم .

ثم استوطن بنوه واحفاده الحسنيون تلك الجهات ، وانتشروا وكثروا فيها ، وملكوا عيون ينبع ، ومزارعه .

ووصف البشاري في القرن الرابع الهجري ينبع بأنها أعمر من المدينة فقال : (ينبع كبيرة جلية ، حصينة الجدار ، غزيرة الماء ، أعمر من يثرب ، واكثر نخيلاً ، حسنة الحصن ، حارة

---

(١) درر الفوائد (٥٣٤) رحلة الشتاء والصيف (١١)

السوق [1] وعامة من يتسوق بالمدينة في الموسم منها ، لها بابان ، الجامع عند أحدهما ، الغالب عليها بنو الحسن) ، انتهى كلام البشاري .

وقد قامت للحسنيين دولة في القرن السادس الهجري ، كان من اشهر رجالها الشريف قتادة جد ولاة مكة من الاشراف في العهد الاخير .

وكان قتـــادة وذووه يسكنون في (العَلْقَمية [2]) من عيون ينبع المعروفة الآن ، وقد سار قتادة بعد ان ملك ينبع والصفراء وما حولها من البلاد الى مكة ، فانتزعها من حكامها الهواشم ، وخطب للناصر العباسي ، وفي سنة ٦١٧ قتل قتادة هذا قتله ابنه حسن وتولى بعده ، واستمر حكمه في مكة ونواحيها مع استقراره في ينبع ، ثم ملك بعده راجح بن قتادة ، فالحسن بن علي بن قتادة . ومنه في سنة ٦٢١ اشترى سلطان اليمن نور الدين علي بن رسول قلعة ينبع [3] .

وقد استمر الملك في آل قتادة يتوارثونه حقبة من الزمان ،

---

(١) يعبر كثيراً بحرارة السوق ويقصد قوة الحركة فيه .

(٢) سمط النجوم (٢٠٧/٤)

(٣) سمط النجوم (٢١٩/٤) . السلوك للمقريزي (٢١٥/١)

واتخذوا من وادي ينبع حصناً لهم يلجأون اليه كلما دهمهم عدو قوي، وكانوا يستعينون بسكان تلك الجهات من البوادي حتى قويت شوكتهم، وحالفهم وانضم اليهم أفخاذ كثيرة من قبيلة جهينة، صاروا يعرفون ببني ابراهيم لمحالفتهم لبني ابراهيم بن اخي النفس الزكية – من الاشراف الحسنيين، وصار لبني ابراهيم صولة في القرن العاشر الهجري وما بعده – تأتي الاشارة الى بعضها في موضع آخر –

ولوقوع ينبع في طريق الحجاج الذين يقدمون من مصر، فانه في عهد دولة المماليك واستيلائها على الحجاز، وضعت ضريبة تؤخذ من امير ينبع، وتدفع للعربان الذين يحافظون على حماية ركب الحج. ولم تلغ هذه الضريبة الا في سنة ٨٤٤هـ[١]

ونجد في كتاب (درر الفوائد) بياناً لمقدار هذه الضريبة، وكيفية توزيعها على النحو الآتي. يؤخذ من امير ينبع مائتي دينار، تصرف :

٦٥ ديناراً للاحامدة من قبيلة بليّ

٥٨ « لبني عطية

٤٠ « لبني عقبة

---

(١) درر الفوائد (٣٢٨)

١٧ « لبني حسان ، أصحاب سقاية « نَبْط » محطة للحجاج فيما بين ينبع وبين الحوراء لا تزال معروفة .

٢٠ ديناراً لبني زبيد .

وعلى امير ينبع - ايضاً ضريبة أخرى لأمير الحج ، واصحابه ، تقرب من ثلاثمائة دينار في السنة ، هي كما اوضحها الجزيري [1] .

٢٥ للدلاء (جمع دليل)

٣٠ الدوادار (رئيس الكتاب)

٢٥ الخازندار (امين الصر)

٢٠ أصحاب الديوان

١٠ القاضي

١٥ الشاوشية (الضباط)

٢٠ صاحب المطبخ وخدمه

١٠ حامل الصنجق (العلم)

٢٤ لحاملي الهدية الى امير الحاج

١٠٠ بقية جماعة امراء الحاج (وقد فصّلهم الجزيري)

---

(١) درر الفوائد « ص ٥٣٦ » .

وكثيراً ما تعرض الحجاج – اثناء ضعف الحكم – لاذى امراء ينبع انفسهم .

ولاذى البدو ، الذين تقسو عليهم الحياة فتضطرهم الى ارتكاب بعض الافعال السيئة مع حجاج بيت الله الحرام ، وهذا يفسّر لنا بعض ما نقرأه في كثير من كتب الرحلات والجغرافية من وصف سكان هذه الناحية بصفات لا تليق بهم ومن ذلك قول الشيخ ابي بكر احمد بن هارون في وصف ينبع في اول القرن العاشر الهجري [١] : (ينبع : من اعظم مدن الحجاز ، الا انها صغيرة ، وهي بندر التجار ، ومحل المكاسب ، ولها امير مثل مكة ، وبها دور واسعة ، وحواصل ، ودكاكين ، وسرحات ، وبساتين وزروع ، وعيون واشجار ، ونخل ، واهلها ينسبون الى بخل زائد ، حتى قال فيهم القائل :

يا أهل ينبع انتم أخسُّ ما في البريّة
لاحرف يقرا ، ومعْ ذا لكم (عيونٌ) قويّة

انتهى ، وكذب هذا الشاعر ففيهم سادة كرماء ، وذوو فضل وحسب وكرم خلال ، وما زالت الاشراف تهجى وتمدح .

---

(١) كتاب « روضة الازهار ، فى عجائب الاقطار » الف سنة ٩٢٢هـ النسخة الكتانية « الرباط » رقم ٢٣٨١ .

ولعل من اهم اسباب اختلال الأمن ، والتعرض للحجاج ، هو سوء ادارة الولاة الذين تختارهم الدولة ، وبعدهم عن العرب بعداً يجعلهم لا يفهمون نفسيتهم ، ولا ينظرون اليهم نظرة عطف ورعاية .

ولو تعمق الباحث في دراسة اسباب جميع الحوادث التي كانت تقع من العرب مع الحجاج او الولاة ، مما يخل بالأمن ، لادرك ان تبعة كثير منها - بل كلها - تقع على الدولة الحاكمة نفسها .

في سنة ٧٨٥ هـ نزل امير ينبع الشريف سعد بن ابي الغيث الحسيني على حاج المغاربة في العقيق ، فسألهم ان يعطوه شيئاً فأمسكوه وربطوه معهم ماشياً ، فاتاهم كثير من عربه فقاتلوهم فقتل من حجاج المغاربة عدد كثير ، وافلت منهم الشريف سعد ، فادركهم حجاج التكرور ، وقاتلوهم ، فقتل كثير من التكرور وأخذت أموالهم ، واموال من كان معهم من الصمايدة وغيرهم - كذا قال الجزيري (١) .

وفي سنة ٨٧٩ عزل سلطان مصر امير ينبع سبعاً عن الامارة ، وفوضها لرأي شريف مكة .

وفي سنة ٩٠٣ هـ ولي امرة ينبع يحي بن سبع ، في ٤ جمادي

---

(١) درر الفوائد « ص ٣١٣ »

الآخرة[1] .

وفي عهد هذا الامير اشتد أذى عربان ينبع للحجاج وامتد حتى صاروا يقومون بنهب امهات المدن في الحجاز ، وانضم يحيى بن سبع وقومه الى احد الأشراف حتى تولى مكة ،فحصل عبث كثير في داخل مكة ، وانتشرت شرور الاعراب فأمر السلطان بارسال جيش عظيم من مصر ، التقى مع ابن سبع وقومه في السُّوَيق ، – كما ستأتي زيادة ايضاح له – ، وهزمهم شرَّ هزيمة ، وذلك في شهر شوال سنة ٩١٢ ه .

وقد مرَّ الجزيري بينبع في سنة ٩٥٩ – وكان يتولى ديوان أمير المحمل المصري ، فوصفها وصفاً يحسن ايراده بنصه ،قال[2]: (وينبع الربع الرابع من أرباع الحجاز – الاول من القاهرة الى العقبة ، والثاني من العقبة الى الازلم ، والثالث من الازلم الى ينبع ، والرابع من ينبع الى مكة – يدخلونه ضحى يوم السادس عشر من عقبة أيلة .

وبها مياه جارية ، ونخيل وزروع ، وبها جامعان معطلان من الخطبة ، وغالب اهل القرية على مذهب الزيدية ، والجامعان

---

(١) سمط النجوم للعصامي « ٤ ، ٣٠١ »

(٢) درر الفوائد « ص ٥٣٥ »

انشاء الشريف حلام بن اجود من امراء ينبع سنة ٨٥٢ ،واذانهم بحي على خير العمل .

وبينبع عين جارية حلوة من خارج البلد مشرقهـــا فتمر بالمدينة ، وتمدها عيون اخرى الى غربي المدينة ، وداخلها ،سوق به بعض دكاكين وصاغة ، وحوانيت ، يفرش بها التجار انواع القماش ايام الموسم ، للبيـع على اهل القرية ، والواردين اليهـا . وبها الحدائق والخانات والافران والبيوت ، وقد خربت ودثر منها اماكن كثيرة ، وانشأ بها صاحبنا السيد الشريف دَرّاج بن هِجَارِ بن مُعَزّي بن درّاج بن وُبَير اميرهـــا بيتاً حسناً وبجانبه داراً اخرى لسكنى ولده الشريف علي المدعو دُغيْليب وذلك في سنة ٩٥٩ هـ ولم يكن بالينبع اليوم داراً احسن منها .

وينصب بخارجها ايام الموسم سوق فيه من المـــأكولات والدقيق والفول والبضائع والعليق .

وبهذه القرية يدع اهل الركب ودائعهم الى العود ، في بيوت الثقات .

وقاضيها الآن صاحبنا الشيخ برهان الدين ابراهيم ابن يحيى بن محمد بن عبد الوهاب بن شمس الدين محمـــد بن احمد بن زُبَالة الشافعي ، وليس في القرية فيما يظهر لي شافعي من اهــل السنة والجماعة غيره ، فان غالب اهل قرى الحجـاز على مذهب

الزيدية ، يستبيحون [1] دماء الشافعية .

وعلى مرحلة منها البندر الذي بساحل البحر الملح غرباً ، وبه خانٌ وحصار ، وجماعة الشريف يأخذون الزّالة من اهـــل المراكب المارة بهذا البندر ، وهي عادة لأمير الينبع ، يستعين بها على امرته ، على كل حمـــل ثمانية انصاف من الفضة .

واهل الركب يستبشرون بالقرب من ام القرى عند وصولهم الى ينبع ، فمنهم من يجتمع مع احبائه واصحابـــه عند العيون والحدائق والنخل هناك ، ويطبخون النبت المعروف بالملوخية ، ويأكلون بمسرّة وهناء .

وفي غالب اوقات اقامـــات الركب بالينبع تهب رياح شديدة ، ويثور عليهم من سافي الرمل والتراب ما يتمنى معه المسافر عدم إقامته بها ، كما يقع ذلـك كثيراً ايضاً بمنزلة رابـــغ .

والينبع من المناهل الكبار ، يصل الى امير الحاج ما تجهّزه من حموله واحتياجه ، ليأخذ منه ما يكفيه الى مكة المشرفـــة

---

(١) هذه فرية على الزيدية، واليمن وحكامه زيديون وكثير من سكانه من الشوافع .

وما يحتاجه لطريق الزيارة الشريفة ولرجوعه منها الى الازلم[1] ، وما فاض عن ذلك يباع للتوسعة على المقومين والحجاج، ليحصل الرفق لأهل الركب ، خصوصاً ان كف امير الحاج عن الباعة من اهل القرية ، ولم يمنعهم عن البيع ، الا بعد فراغ ما عنده ، فيكون سبباً لرخاء الاسعار بها ، خلافاً لما يفعله بعض الطماعة من امراء زماننا الذين لا خلاق لهم ، فيكون سبباً للغلاء والقحط .

وعادة الاقامة بها لراحة الحجاج ثلاثة ايام انتهى .

وقد وصف قطب الدين المكّي المؤرخ ينبع ، وما شاهد من طريقة احتفاء اميرها بالمحمل حينما مرّ في ٢٣ ذي القعدة سنة ٩٦٥ فقال في رحلته[2] ، (المنزل الثالث والاربعون : جبل الزّينة ، وهو موضع مشرف على الينبع ، وصله قبل الفجر ، وخرج اليه على العادة صاحب الينبع ، في زينته وقوّاده ، ومن معه ، وهو السيد دراج بن هجار ، فاجتمع بأمير الحاج، وزيّن المحمل ، والعسكر واوقفوا المحمل ، فوضع له سجّادة بين يدي جمل المحمل ، فصلى عليها ركعتين ، ثم تقدم الى رحل جمل المحمل، ووضع عليه منديل ، وطأطأ اليه ، كانه يقبّله ، وهذا رسم

(١) منهل معروف بين الوجه وظبا .
(٢) الفوائد السنية في الرحلة المدنية والرومية « مخطوط » .

قديم ، اعتاده امراء الينبع ، ثم ركب فرسه ، ولبس خلعته ، هو وولداه ، وقاضي الينبع ، ومشى الى جانب امير الحاج أمام المحمل ، ودخل الينبع بهذه الصفة .

المنزل الرابع والاربعون : اليَنْبُعُ ، دخلنا ضحى يوم الاربعاء ثالث عشر ذي القعدة ، وأقام ذلك اليوم واليوم الذي بعده ، وارسل السيد دراج قاصداً على عادته الى مكة .

وينبع فعل مضارع ، ماضيه نَبَعَ صار علماً على عدة عيون ، في هذا المكان ، وبها خيوفٌ خرب أكثرها ، وهي ولاية مستقلة ، يُوَليها صاحب مكة من اراد من اشراف الينبع ، وهم الآن ذوي هجار ، وكبيرهم الذي ذكرناه آنفاً ، مولانا السيد درّاج بن هجارِ بن مُعَزّي بن درّاج بن وُبَيْر .

وشرفاء ينبع يقال لهم بنو ابراهيم ، وهم فخذ من بني حسن ومنهم جد صاحب مكة ، الشريف قتادة بن ادريس بن مُطاعن أخذ مكة من طائفة اخرى من بني حسن يقال لهم الهواشم .

ولينبع قاضٍ شافعي المذهب من بني زُبَالة ، من اهل المدينة الشريفة ، وكان آخرهم القاضي ابراهيم بن يحيى بن محمد بن عبد الوهاب بن محمد بن احمد بن زبالة ، عزله الافندي عبد الرحمن قاضي المدينة ، لما استولت قضاة الاروام بالمدينة الشريفة

فتوجه ابراهيم الى المدينة ، واستمر بها الى ان توفي رحمه الله — وحول ينبع عيون كثيرة ، يقال انها خمسون عيناً او اكثر .

وبها الآن عينٌ يقال انها لسيدنا علي رضي الله عنه ، وعين أخرى يقال انها لسيدنا الحسن ، واخرى لسيدنا الحسين رضي الله عنهما .

وسمعت من حكى انه عد مائة وسبعين عيناً بالينبع الى ان قال : وللجلال السيوطي تاليف مستقل في الينبع .

وقال الشيخ محمد بن عبد القادر بن محمد الحنفي ، في كتابه طريق الحج[1] : – (ثم الرحيل من دار البقر ، الى منزلة تعرف بمدينة (الينبوع) وهي منزلة متسعة ، يوجد فيها غالب مايحتاجه الانسان ، من اللبن والتمر ، والزبد والعجوة ، والبطيخ الاصفر ، والزرع والمرعى ، والخضارات والباذنجان واللب والريحان ، والحطب فيها قليل ، ويوجد في المنزلة غبار ، وشعث كثير ، وعقارب سود مؤذية .

ويشتري منها الحجاج الطيب والبخور ، وفيها يدبغ الاديم ، ويشترى منها ، ويودع الحجاج فيها الودائع ، وفيها عيون ماء تجري ، وحدائق ، وفيها اقامة سلطانها ، وهو شريف .

وبالقرب منها جبال صغار ، ووراءها جبل عال يعرف

---

(١) منازل الحج « ص ٤١ نسخة مكتبة الاوقاف في حلب »

برضوى ، وارضها رملة ، وينصب فيها سوق كبير للسوقة ، وآخر للتجارة ، وحياض الماء تضرب على طول العين الخارجة من المدينة بالقرب منها ، واهلها اجواد ، يحبون الحجاج ويفرحون بهم ، ويطلبون منهم خيط الخياطة ، والابر ، ويتداوون بزادهم ، وغالب ما تكون الاقامة بها في الذهاب اربعة ايام) انتهى .

وفي سنة ١١٠٥ (الف ومائة وخمس) تعرّضتْ قرى ينبع لكارثة مماثلة لما حدث لها في القرن الثالث الهجري ، فقد غزاها شريف مكة سعد بن زيد ، وهزم سكانها وقام باحراق القرى ، وعَقْر النخيل وها هو الشيخ عبد الغني النابلسي يصف ما شاهده : (وفي يوم الاحد ٢٢ شعبان (١١٠٥) ركبنا مع الشريف الى ان وصلنا قرية من قرى ينبع النخل تسمى سُوَيقة ، من منازل بني ابراهيم اخي النفس الزكية ، وقد وجدناها خالية ليس بها احد ، وقد رحل اهلها ، وخرجوا على الشريف سعد بن زيد لانهم حالفوا قبائل حرب ، فذهبوا معهم يساعدونهم على قتاله — وهذه القرية فيها ماء جارٍ ، ونخل كثير وكان له حمل كثير في هذه السنة ، والمراجين بَعْدُ ما نضجَ بُسْرُها ، فجلسنا على حافة ذلك الماء الجاري ، وشربنا القهوة ، مع الشريف وولده .

وقد أمر — حفظه الله ! — بحرق بيوت القرية ، وانّا لنرى النارَ تتأججُ في جدرانها التي من اخشاب النخل اليابس ،والهواءُ يزيدُها تأجُّجاً والتهاباً . وقد امر بقطع النخيل فيصعدُ العبْدُ الأسودُ الى أعلى النخلة فيقطعُ جُمّارَها وعَراجينها ، فتسقط العراجينُ الى الارض كل عرجون فيه البُسْرُ الاخضرُ الذي لم ينضج ، مقدار العشرة الارطال الشاميّة او اكثر او اقل[1] .

ان تاريخ بلاد ينبع هو تاريخ سكانها ، وسكان هذا الاقليم كما هو معروف من اقدم الازمنة .

وقبيلة جُهَيْنة ،وهي قبيلة من اعظم قبائل العرب ، واقواها ولها تاريخ حافل لا تتسع هذه الصفحات القليلة لايضاحه ، ويجد القارىء بحثاً يتعلق بهذه القبيلة في مجلة العرب[2] ،قد يعطي فكرة مجملة — وان لم تكن كاملة — عن بعض احوالها مما يتصل اتصالا وثيقاً بتاريخ هذه البلاد ، ويعتبر جزءاً مكملا لذلك التاريخ .

ان كثرة الفتن وتوالي الحروب ، صرفت سكان وادي ينبع عن العناية بالزراعة ، وفي اول العهد السعودي بعد استتباب

---

(١) رحلة النابلسي « الورقة ٢٣ وما بعدها نسخة فينّة» .

(٢) مجلة العرب « الجزء الثالث من المجلد الاول وما بعده »

الامن وانتشار العَدْل ، نشطت حركة الزراعة ، فانتعشت حالة البلاد بصفةٍ عامة ، وكانت حاصلات ذلك الوادي من التمر ومن الحِنّاء تزيد عن حاجة البلاد ، بحيث كان يصدر الى مصر من الحنّاء كمية كبيرة تحمل بالسفن الشراعية، وبالبواخر الى السويس مع حاصلات اخرى من الفَحمْ وغيره .

وفيما يلي اسماء اهم قرى ينبع النخل ، ومقدار زكاة حاصلاتها من التمر في عام ١٣٦٣ : — مرتبة على حروف الهجاء :

١ — البَثْنَةُ —	الجهينة —		١٩٧٠ أقة
٢ — البَرَكَةُ —	للاشراف —		٤٢٥ أقة (١)
٣ — البِقَاع —	الجهينة	—	٠٠٠
٤ — الجَابِرِيَّةُ :	»	—	١٥٠٦
٥ — السكوبية :	»	—	٠٤٢٥
٦ — السُوَيْق :	»		

(١) عين البركة هذه من اقدم عيون ينبع ، وهي احدى عيون العشيرة التي لها ذكر كثير في كتب السيرة ، وقد درست العُشَيرة وموقعها فيما بين البركة وبين البحر

١ ـ خَيف حُسَين	«	١٥٥٨
٢ ــ عَيْن حسن	«	٠٩٩٤
٣ ــ الفِجَّةُ	«	٢٤٨٨
٧ ــ سُوَيْقَةُ :	الحرب	
١ ــ عَيْن جَديد	«	٥٠٩٥
٢ ــ الحارِثيّة	«	١٥٥٩
٣ ــ خيف فاضل	«	١٨٧٠
٨ ــ شَعثَاء ــ	«	١٦٦٣
٩ ــ العَلْقَمِيّةُ ــ	الجهينة	١٧١١

والعلقميّة بلدة الشريف قتادة وذويه الذين حكموا مكةمن القرن السابع الهجري الى القرن الرابع عشر .

١٠ ــ عين حسين	«	٢٤٨٨
١١ ــ عين سلمان	«	٠٦٨٠
١٢ ــ عين عَجْلان	«	٢٩٨٦
١٣ ــ عين علي	الجُهَنيّة	١٩٢٥
١٤ ــ « «	الحَرْبيّة	٢٣١٠

١٥ – عين النَّوى	لجهينة			٠٨٤٣
١٦ – القَرَّيةُ	– للاشراف –			١١٣٤
١٧ – المبارك	– لجهينة	–		٠٩٦٨
١٨ – مَدْسُوس	–	»		٠١٥٨
١٩ – المزْرَعَةُ	– للاشراف –			١٤٤٠
٢٠ – النُّجَيْل	–	»	–	٠٠٨٤
٢١ – اليَسيرَة	–	»	–	١٥٣٤

هذه المقادير للزكاة هي باعتبار عشر المحصول ، بصورة تقريبية بطريقة الخرص الذي يقدّره عمال الزكاة ، وفي الغالب لا يزيد على المقدار الحقيقي بل يقل .

وبلدة (السُّوَيق) في العصر الحاضر هي مَقَرُّ الامارة في ينبع النخل ، وقد اصبحت في الزمن الاخير تابعة لامـارة (ينبع) التي هي الميناء ، والتي اصبحت قاعدة تلك الناحيـة (وسيأتي الحديث عنها مفصلاً)

ثم ادركت البلاد حركة ركود شامل بسبب انصراف الحجاج عن النزول في ميناء ينبع وانعدال واردات المدينة من الخارج الى ميناء جدة بعد تقويتها فنشأ عن هذا ان ضعفت حالة البلاد الاقتصادية بصفة عامة ، وانتقل اكثر اهل ينبع الى جدة والى المدينة والى غيرها من مدن المملكة .

وضعفت حركة الزراعة ، وتوالى الجدْبُ فقلت المياه ، ونضبَتْ عيون كثيرة .

ولئن كان هذا الامر يومئك ان يكون عاماً ـ في جهات كثيرة من البلاد ــ فان الآمال القويّـــة ، والنشاط المتواصل المبذول من أهل هذه البلاد ، ومن رجال الدولة مما يحمل على الاعتقاد بأن ستنال هذه البلاد من حسن الرعاية ومن الاتجاه الى اصلاح جميــع مرافقها الحيوية ، ما يُهَيِّءُ لها حياة كريمــة ، وما يمكنها من مجاراة ركب التقدم ، الذي شمل جميع نواحي المملكة ، في هذا العهد الميمون .

وها هي تباشير الاصلاح تبدو فيما تبذله الحكومة من اصلاح الميناء بتوسيعه ، وبتهيئة وسائل الراحة لسكانه ، وباتخاذ مختلف الوسائل التي تعيد لذلك الاقليم حياة رخاء ورفاهية واستقرار .



القسم الثاني: مدينة ينبع البحر

ينبع البحر : تضاف الى البحر للتفريق بينها وبين ينبع النخل ، ولوقوعها على ساحل البحر .

وتأتي أهمية هذه المدينة بكونها ميناء المدينة ، وكانت الميناء الثانية في الحجاز .

وليس لها شهرة كبيرة عند المؤرخين في العهود الاسلامية ، قبل القرن السابع الهجري .

مع ان بعض المستشرقين يرى انها كانت معروفة قبل الاسلام ، بل قبل ميلاد المسيح عليه السلام ، وانها كانت تسمى في كتب اليونان القديمة (NERA) او (NEGRA)[1]

وقد نقل الدكتور جواد علي عن (فورستر) ان كلمة (NERA) اليونانية ، تعني كلمة « ينبع » العربية . ولذلك تعني كلمة (NERA KOME) في العربية : « مدينة ينبع : وانها هي الميناء التي ابحر منها اليونان[2]

مع ان الدكتور جوادا[3] ذكر ان من الموانيء المعروفة على شاطيء البحر الاحمر ميناء (EGRA) كان هـذا الميناء

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام « ٢/٣٨٩ »

(٢) المصدر السابق .

معروفاً في العهد الجاهلي ، في كتب الرومان ومنه كان الرومان يعودون من جزيرة العرب الى مصر .[1]

وأرى ان هذا هو الميناء الذي نقل الدكتور عن (فورستر) انه « ينبع » ، وان الاسم حُرّف بحذف حرف (G) وبزيادة حرف (N) في اوله ، فاذا صح هذا فان اقرب موضع تنطبق عليه التسمية والوصف هو (أكره) فيما بين (الوجـه) و (الحوراء) قديما و (املج) حديثاً وكان من اشهر مناهل طريق الحج المصري ، وله ذكر كثير في كتب الرحلات ، وخاصة في القرن الثامن فما بعده .

وهذا لا ينفي وجود ميناء ينبع في العهد القديم .

ولما استقر الاسلام ، واصبحت المدينة قاعدة له ، كان المسلمون على صلات قوية ببلاد الحبشة ، فاختاروا ميناء للمدينة قريبة منها ومن بلاد الحبشة اختاروا (الجار) .

وميناء الجار كان معروفاً في العهد الذي سبق الاسلام الا انها في العهد الاسلامي في اوله اكتسبت شهرة كبيرة حينما اصبحت اشهر ميناء في الحجاز .

وتعهدها الخلفاء ، واهتموا بشأنها بعد فتح مصر ، فقد روى

---

(٣) تاريخ العرب قبل الآسلام « ٢/٣٨٨ ».

المؤرخون [1] ان عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية كتب اليه الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان يحمل الطعام منها الى المدينة ، حتى يصل الى ساحل الجار ، فأرسل عمرو طعاماً في عشرين مركباً ، في المركب ثلاثة آلاف اردب ، واقل واكثر حتى وافى الجار ، فخرج الخليفة ومعه جلة اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى قدم الجار ، فنظر الى السفن ثم وكل من قبض ذلك الطعام ، وبنى هناك قصرين ، وجعل ذلك الطعام فيهما ، ثم أمر زيد بن ثابت ان يكتب للناس صكاكاً من قراطيس ثم يختم اسافلها ، فكان اول من صك وختم الصكاك .

اصبحت الجار الفرضة الرئيسية للمدينة وحازت شهرة تاريخية كبيرة ، بحيث كان البحر الاحمر يعرف ببحر الجار [2]، واصبح جغرافيو القرن الثالث الهجري لا يذكرون غيره في ناحيته .

ويصف البشارى الجار في القرن الرابع الهجري فيقول: الجار مدينة محصنة بثلاثة حيطان والرابع البحر ، وبها دور شاهقة ، وسوق عامرة ، وهي خزانة المدينة ومدنها ، يحمل اليها الماء من

---

(١) تاريخ اليعقوبي « ١٥٤/١ »

(٢) معجم البلدان . وابن الفقيه « مختصر البلدان ص ٧٨ » .

بدر ، والطعام من مصر [1] .

ولقد ضعف شأن الجار منذ القرن الرابع الهجري ، حيث اختل نظام الامن في الحجاز بضعف الحكم ، فتسلطت الاعراب على الجار بالنهب والسلب ، وقتل أهله .

ويقع الجار في المكان المعروف الآن باسم (الرايس)غرب بلدة (بدر) بميل نحو الشمال ، وكان الماء العذب ينقل اليه من بدر . ويرى بعض الباحثين انه يقع في مكان (ميناء البُريكة) الذي لا يزال مستعملاً .

وفي آخر القرن السادس الهجري بدأ امر الجار يضمحل وصار حجاج مصر والمغرب يركبون البحر من عيذاب الى ميناء جدة .

وبدأ ميناء ينبع يقوى ، ففي سنة ٦٢١ اراد الايوبيون — وكانوا مسيطرين على الحرمين — ان يجعلوا (ينبع) الميناء الرئيسي للمدينة ، فاشتروه من الاشراف الحسنيين اهل ينبع النخل باربعة آلاف مثقال [2] ؛ واقاموا فيه بعض الانشاءات .

وبعد تسع سنوات استولى عليه الاشراف الحسنيون ولكنهم

---

(١) احسن التقاسيم « ص ٨٣ »
(٢) : السلوك للمقريزي « ٢١٥/١ »

لم يستطيعوا الصمود لقوة الايوبيين ، فاسترجعوه منهم ، وشيدوا فيه قلعة حصينة ، ووضعوا فيه جنداً لحمايته ، وجعلوه من الموانىء الرئيسية ، والميناء الثاني في الحجاز .

فكانوا يرسلون السفن التي تحمل ما يحتاج اليه الحجاج ، وما يريدون توزيعه على المحتاجين من اهل المدينة وغيرهم ، يرسلون ذلك بطريق ميناء ينبع [1] .

وفي عهد الجراكسة حكام مصر والشام والحرمين ازدادت قوة ميناء ينبع في اول عهد تلك الدولة لقيام بعض حكامها بالعناية بالحرمين الشريفين بالانشاء والتعمير ، مما جعل فرضة ينبع تستقبل الكثير من السفن التي تحمل الرجال والزاد ، للمدينة المنورة ، وما يحتاج اليه امراء الحج [2]

وفي آخر عهد الجراكسة في اول القرن العاشر اختل الامن في الحجاز ، وعمت الفوضى كل جهاته بسبب تنازع اشراف مكة السيادة ، وقام امراء المدينة بالعبث فيها بالنهب والسلب ؛ وتجرأ أحدهم على نهب ما في الحجرة النبوية الشريفة من تحف وذخائر ، ولم يستطع رجال الدولة الحاكمة - وهم الجراكسة في مصر - ان يضعوا حداً لتلك الفوضى لضعفهم .

---

(١) السلوك (٩١٧/١) ودرر الفوائد (٢٨٩) .
(٢) الدرر « ٣٤٤ »

وكان من جراء ذلك ان شمل الفساد إقليم ينبع كله مما كان سبباً في تخريب مدينة ينبع الميناء .

ويحسن ان نستطرد قليلاً بذكر بعض الاسباب التي دفعت إلى ذلك .

كان امير اقليم ينبع في اول القرن العاشر رجل من الاشراف يدعى (دراج) وهو جَدُّ ذوي هجار الاشراف المعروفين الآن في ينبع النخل .

ولهذا الامير موقف كريم في مدينة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فقد قام اميرها حسن بن الزبير من آل نعير في يوم الثلاثاء سادس ربيع الاول من سنة احدى وتسعمائة بالاعتداء على حراس المسجد النبوى الكريم ، وأخذ ما في الحجرة النبوية من التحف والنفائس ، مدفوعاً إلى ذلك حسبما يعبر مؤرخ تلك الحادثة : (بسبب فقره الثقيل ، وعقله الخفيف) .

وحلَّ بالمدينة وأهلها الذعر والخوف الشديد والقلق لما قام به ذلك الامير ومن معه من الاعمال السيئة من التعذيب والنهب والسلب فانفرط عقد الامن وسادت الفوضى .

يقول المؤرخ : (فبادر الشريف شهوان الحسيني الى درّاج امير الينبوع ، فأخبره بما اتفق وسأله المجيء لحفظ البلد ، فـــان

الناس حصل لهم رجف كبير

ولما كان رابع عشره (٩٠١/٣/١٤) وصل دراج امير الينبوع وابنه ، في تجريدة خيل نحو خمسة واربعين فارسا ،وجمع من الركاب والمشاة يزيدون على ثلاثمائة نفر ، ونزلوا في دار آل منصور ، ونزل دراج دار ضيغم فاطمأن الناس بوصولهم .

ثم في خامس عشره وصل بقية القواد في بعض خيل ومائة رجل ، ونادى منادي دراج بالأمن فسُرَّ الناس .

ثم بعد عشرين يوماً جاءت خيل من الشريف محمد بن بركات نحو عشرين فرساً ، وثلاثين قواساً ، مضافاً الى ما كان بالمدينة من خيل دراج فتزايد الامن .

ثم بعد يومين من وصولهم سافر الشريف دراج .

انتهى ما ذكر المؤرخ .

توفى دراج الامير في سنة ٩٠٢ - فحصل نزاع على الامارة بين ابنائه وبين أبناء شريف آخر يدعى يحيي بن سبع ، وكانت امارة ينبع منوطة بالسلطنة نفسها في القاهرة ، كأمارة مكة وإمارة المدينة .

فذهب يحيى بن سبع الى القاهرة وافداً على الابواب السلطانية طالباً تعيينه في امرة ينبع مكان والده (سبع)

الذي كان يوماً ما في ذلك المنصب ، وكان الملك الاشرف قد اضافها الى امير مكة . فمين فيها احد ابناء درّاج . ودراج له يدٌ على صاحب مكة ، فقد ساعده باضافة امارة المدينة اليه بعد حادثة نهب تحف الحجرة النبوية .

ولهذا لم يجب يحيى بن سبع الى ما طلب ، وعاد من القاهرة حاقداً على الابواب الشريفة كما يقولون . فلما مرّ باحدى محطات الحجاج بقرب القاهرة (عجرود) ذبح ما فيها من الثيران التي يسنى عليها لاخراج الماء الى الحياض والجوابي لورود الحجاج ورمى بجثثها في (الفساقي) "(١) .

ولكن شريف مكة – وقد وجد يحيى بن سبع اقوى من منافسيه ولاه امارة ينبع في رابع جمادي الآخرة من تلك السنة (٩٠٢ هـ) .

وعند رجوع يحيى من دار السلطنة غاضباً كلف الدولة ثمناً باهضا .

فقد شق عصا الطاعة وخرج على الدّولة ، وصار يـؤلب القبائل ضدها فانقادت له قبيلة جهينة ، لما بينها وبين قبيلته (بني

---

(١) : درر الفوائد « ٣٤٨ » .

ابراهيم) من الروابط والصلات التي ازدادت قوة فيما بعد ، فاصبح اسم (بني ابراهيم) يشمل كثيراً من فروع جهينة ، لما بينها وبين قبيلته (بني ابراهيم) من الروابط والصلات التي ازدادت قوة فيما بعد ، فاصبح اسم (بني ابراهيم) يشمل كثيراً من فروع جهينة .

وانضم الى يحيى بن سبع مالك بن رومي رئيس قبيلة زُبَيد ، فتألبت هذه القبائل كلها وتجمعت برئاسة يحيى ، وخرجت على الدولة ، وقامت بكثير من ضروب العبث والفساد ، الذي لم يقتصر على نهب الحجاج القادمين من طريق الساحل ، وفيما بين مكة والمدينة .

بل قطعوا الطريق فيما بين مكة وجدة ، وهددوا جدة بالنهب ، بل بلغ بهم الامر إلى ان عاثوا في مكة فساداً ، وصادروا أموال بعض مشاهير تجارها ، وخاف اهلها ، حتى هموا بالهرب منها .

اما في دار السلطنة نفسها فقد انتشرت البلبلة ، وامر السلطان بابطال الحج ، بسبب اختلال الامن ، وبلغ الامر أن اصبح من له ترة عند احد من كبار رجال السلطان فانه يجد وسيلة الانتقام منه سهلة ، هي ان يشي به الى السلطان بأن له صلة بيحيى بن سبع .

ففي شهر صيف سنة ٩٠٨ أمر السلطان بالقبض على رئيس القضاة الشيخ عبد البر بن الشحنة ، بعد ان وشي به بأنه كاتب يحيي بن سبع ، يخبره بأن السلطان يريد القبض عليه .

وامر السلطان بالقبض على ازدمر ، المهمندار (مدير شؤون الضيافة) لانه قيل له بأن يحيى بن سبع كاتبه ، ولم يعلم السلطان بذلك .

ولم يقف الامر عندهذا الحدّ ، بل بلغ الاذى التجار الينبعيين والحجازيين ، الذين كانوا يتعاطون بعض اعمال التجارة في مصر .

وقد ذكر الجزيري [1] : - في حوادث سنة عشر وتسعمائة ما هذا نصه : (وردت اخبار ان جدة ومكة في غاية الخوف من بني حسن ، وان الشريف حميضة نازل هو ويحى بن سبع ، في ينبع ، وهو في جمع عظيم ، فرسم السلطان بالقبض على بني ابراهيم الصيارف الذين في القاهرة والقصبة والشوارع ، وباعة العطر واللبان ، الذين يدورون بالاخراج على اكتافهم ، فحبسوا وصار الوالي يدور على حواصلهم ، ووجدوا مع جماعة منهم سلاحاً وزرديات ، يريدون تجهيزها الى يحى بن سبع) انتهى .

---

(١) درر الفوائد « ٣٥٥ » .

ولا شك ان ما نسب الى هاؤلاء مبالغ فيه ، ولكن الدولة وقدوقعت في حُمّى البلبلة ، اصبحت تتصرف بدون تعقل .

مكث يحيي بن سبع عشر سنوات (من سنة ٩٠٢ الى سنة ٩١٢ هـ) يعيث فساداً في تلك النواحي، وساعده على ذلك وقوع خلاف شديد بين اشراف مكة على ولايتها ، وذلك في سنة ٩٠٧ - فقد خرج على امير مكة بركات بن محمد اخوه أحمد بن محمد المعروف (بالجازاني) وقد قام يحيى بن سبع ومالك بن رومي ومن معهما الى جانب هذا الخارج ، ودخلوا مكة بمن معهما من الاعراب ، مؤيدين للجازاني ، ثم لاخيه ، بعد ان قاموا بنهب الركب الشامي في (رابغ) فنهبوه وقتلوا الرجال واسروا النساء ، وفعلوا أفعالاً شنيعة [1] .

ولئن كان سبب كثير من هذه الحوادث هو موقف السلطان حينما رفض تعيين يحى بن سبع في الامارة ، فان من الاسباب ايضاً ان الدولة الجركسية كانت تولي إمارة الحج رجالاً لا يحسنون سياسة العرب ، وكثيراً ما اندفعوا مغرورين بقوتهم وشجاعتهم فعملوا أعمالا تثير لهم النقمة في نفوس العرب .

وها هو مثال من ذلك :

---

(١) بدائع الزهور « ٣٦/٤ » .

بعد انتهاء حج سنة ٩٠٧ ـ طلب امير الحج المصري ويدعى (اصطمر) ويلاحظ ان امراء الحج في عهد الجراكسة كلهم اعاجم ـ طلب من شريف مكة الخروج مع الحاج ، لقتال الجازاني الذي انضم الى يحيى بن سبع في ينبع ، فلما وصلوا (الدهنا) فيما بين (بدر) و (ينبع) وهي من بلاد ينبع لاقاهم الجازاني بجمع كبير من بني ابراهيم ، وقال الجازاني لاصطمر : لا تدخل بيني وبين اخي بركات ـ شريف مكة ـ ودعنا نقتتل فيما بيننا ، وخذ الحاج وامض ! . فلم يسمع (اصطمر) ذلك ، ويصفه ابن إياس قائلا : (وكان قليل الدربة) فحصلت الوقعة ، فآل الامر الى ان انكسر (اصطمر) وقتل ممن كان معه من المماليك السلطانية نحوا من مائة ، غير الغلمان ، وتمت الكسرة على من كان بركب المحمل ، ونهب كل ما فيه ، حتى عريت النساء من ثيابهن ، واخذت عصائبهن من على رؤوسهن وقاسين كثيراً من الشدة ، وتخلف غالب الحجاج في (ينبع) وسافروا منه في مراكب في البحر ، ولم يصلوا القاهرة الا بعد مدة طويلة ، في انحس حال ، وقاسوا غاية المشقة ، وجرى عليهم كل سوء ، كما يقول ابن إياس [1] .

---

(١) بدائع الزهور « ١٣٧/٤ »

وما هذا الا من طيش امير الحج ، وهو في الحقيقة الجاني على نفسه وعلى من معه .

ومثال آخر :

اراد يحيى بن سبع — مرة اخرى — ان يتقرب الى الدولة المصرية الجركسية ، بعد هذه الحوادث ، فأرسل اليها رسولا يطلب منها الرضا عنه ، وتثبيته في امارته ، فقدم هذا الرسول الى القاهرة في سنة ٩١١ هـ فوجد السلطان قد (أنعم) بامرة ينبع على (هجار بن درّاج) عوضاً عن يحيي بن سبع . فقال رسول يحيى للسلطان : هجار ليست له قدرة عليها ، وهو عاجز ، لا مال له ، فما كان من السلطان الا ان امر بحبس الرسول ، ورسم بابطال التوجه الى الحجاز من مصر والشام ، وسائر الاعمال قاطبة ، وارسلت الكسوة و (صُرّر) الحرمين الشريفين والزيت ، من الطور الى جدة بحراً [٢] .

ويعلق ابن اياس قائلاً : (ولم يبطل الحج هذه السنة كبير امر اوجب ذلك ، ولكن السلطان اهمل الامور في اول الامر ، حتى تزايدت الفتن من قبيلة بني ابراهيم ، والتفوا على الجازاني)

---

(١) درر الفوائد « ٣٤٨ » و بدائع الزهور « ٨٩/٤ » .

حقاً لقد أهمل السلطان الامر من كل النواحي حتى اوشك ان يستعصي حله ، وحتى كلف الدولة والامة الكثير من الجهد والاموال ، وازهاق النفوس البريئة .

عين السلطان اميراً جديداً لبلاد (ينبع) هو هجار بن دراج في سنة ٩١١ هـ

وامر في هذه السنة بارسال ثلاث قوات من العساكر، احدها الى الحجاز ، والثانية الى الكرك في الشام لقتال عرب بني لام ، والثالثة الى الهند، لنصرة ملوك المسلمين الذين استولى البرتقاليون على بعض سواحل بلادهم .

وقد خرجت القوة الثالثة في تلك السنة ، وكان طريقها على (ينبع) بحراً ، فوقع بينها وبين يحيى بن سبع قتال قال ابن اياس : (وفي صفر جاءت الاخبار من الينبع بأن التجريدة التي خرجت الى الهند ، بسبب تعبث الفرنج ، لما وصلوا الى الينبع اتقعوا مع يحى بن سبع امير الينبع ، فهرب من وجهم وكانت الكسرة عليه ، وقتل من عربانه جماعة كثيرة .

واحرقوا الدور التي على ساحل البحر الملح ، التى ببندر الينبع ، واخربوا غالب دكاكينه ، وشتتوا العربان الذي به[1].

---

(١) بدائع الزهور « ٤/٩٥ »

هذا ما ذكره ابن اياس ، والظاهر ان هـذه (التجريدة) القوية ارادت ان تجرب ما معها من الات حربية حديثة الصنع تسمى (المكاحل) وهي المدافع ، فأتت على تلك البلدة بالهدم والتحريق، وهي الات لا عهد للعرب في ذلك العهد بها ، فهي لم تدخل بعد بلاد العرب ، ولا يستبعد ان يكون يحيى بن سبع ومن معه من العرب حاولوا في اول الامر ملاقاة هذه القوة ، فلما رأوا من سلاحها ما لا عهد لهم به ، ولا قوة لديهم لمقابلته ، هربوا من وجهها .

ولو كانت تلك التجريدة قضت على حركة ابن سبع ، لما احتاجت الدولة الى اخراج التجريدة الموجهة الى الحجاز ، فهي لا تزال في القاهرة .

كان خبر وصول التجريدة الموجهة الى الهند – الى ينبع ، قد بلغ القاهرة في شهر صفر سنة ٩١١ .

وفي شهر رجب من السنة نفسها خرجت القوة الموجهة الى الحجاز ، بقيادة (خايربك) كاشف الغربية ، وقد جهزت تجهيزاً كاملًا ، وكان فيها من المماليك السلطانية وحدهم نحوا من خمسمائة

---

(١) درر الفوائد « ٣٥٦ » وبدائع الزهور « ٤/١٠١ »

مملوك ، وفيها من الامراء نحو عشرين اميراً .

وخرج معها هجار بن درّاج ، الذي قرر في امرة ينبع مكان يحيى بن سبع .

وخرج المحمل ومعه الحجاج ، الا ان السلطان أمر بعدم خروج النساء ، صحبة العسكر .

وقد وصلت الى ينبع فانهزم منها يحيى بن سبع بعد وقعة انتصرت فيها العساكر المصرية ، وكان ذلك في شهر رمضان .

وفي شهر شوال من السنة نفسها (٩١٢ هـ) حدثت في قرية (السُّوَيق) من ينبع النخل ، معركة عظيمة انتصرت فيها العساكر الجركسية انتصاراً كان فاصلاً ولنستمع الى ابن إياس وهو يصفها ، ويصف عودة تلك القوة الى القاهرة . —

وقعة السُّوَيق : —

(في ذي القعدة (سنه ٩١٢ هـ) وردت الاخبار بأن العسكر المتوجه الى يحيى بن سبع قد انتصر عليه نصرة ثانية ، وكان من ملخص اخبار هذه النصرة ان العسكر لما تواقع مع يحيى بن سبع وانكسر اولا ، توجه الى طائفة من العربان

يقال لهم (عنزة) وهم من بني لام[1]، فالتجأ اليهم ، واستمر مقيما في مكان بالقرب من ينبع .

فلما مضى شهر رمضان ودخل شوال حضر الشريف بركات امير مكة ، وحضر اخوه قايتباي ، وحضر معهما من العربان نحو من الف انسان ، فركب الامير خايربك باش العسكر ، ووزع تلك العربان ، واكمنهم في مواضع متفرقة .

فلما وصل العسكر الى مكان يسمى « السُّويق » بالقرب من ينبع اتى اليهم يحيى بن سبع ، وقد التف عليه مالك بن رومي امير خُلَيص وامير المدينة ، وحميضة اخو الجازاني ، فتواقعوا هناك وقعة مهولة ، قتل بها من العربان ما لا يحصى ومن الاتراك ايضاً .

فلم تكن الا ساعة يسيرة وقد انكسر يحيى بن سبع ومن

(١) : ليست عنزة من بني لام ، ولكن بني لام في ذلك العهد كانوا من اقوى القبائل العربية ، ولهم نفوذ كبير في بلاد العرب ، فكان الجاهلون بالانساب يضيفون اليهم كثيراً من قبائل الجزيرة ، ويعدونهم داخلين تحت امرتهم التي هي امرة (آل فضل) من لام .

كان معه من العربان ، فلما انهزموا خرجت عليهم الامكنة التي اكمنها الامير خاير بك فاحاطوا بهـــم ، ولم ينجح منهم الا القليل ، بعد ما قتل منهم نحو ثمانمائة واسر منهم قدر ذلك .

وجرح في هذه الواقعة الشريف بركات امير مكة في وجهه .

فلما هرب يحيى بن سبع وقع النهب في نجع العرب ، فغنم منهم الاتراك اشياء كثيرة ، من جمال واغنام وقماش مما نهبوه من ركب الحاج الشامي والعراقي .

وقد تمت الكسرة على يحيى بن سبع ، وامير المدينة ، وحميضة اخي الجازاني فهربوا ولم يعلم لهم خبر)[1] .

وقال : — وفي يوم الثلاثاء عاشر ربيع الاول (سنة ٩١٣) كان دخول العسكر الموجه الى الحجاز بسبب محاربة يحيى بن سبع — فدخل الامير خايربك باش العسكر ... ومن معه فكان لهم يوم مشهود ، فزينت القاهرة ودقت الكوسات ، ودخل صحبتهم ثمانمائة راس من رؤس العربان من بني ابراهيم الذين قتلوا في المعركة .

فكانت مدة غيبتهم ثمانية اشهر واياماً ، وقد بيضوا وجههم

---

(١) : بدائع الزهور (٤ / ١١٦)

في هذه النصرة التي وقعت لهم ، وفتحوا درب الحجاز فتحا ثانياً في الاسلام بعد ما كاد الحج ان ينقطع) [1]

لم تفصل المراجع التي بين أيدينا كل ما جرى في هذه الوقعة ولم تصفها باكثر مما اوردناه هنا ، وما جاء عنهـا في كتاب (درر الفوائد المنظمة) وهو لا يزيد كثيراً عما جاء هنا .

ولكننا نستطيع ان ندرك شدة العنف والبطش والفظائع التي ارتكبها الجيش في تلك البلاد واهلها من عبارة وردت في في مؤلف الف بعد وقوعها بسبع وعشرين ومائة سنة ، حيث بقيت ذكراها السيئة عالقة في الاذهان .

قال السيد محمد بن عبدالله الحسيني – الشهير بكبريت – المدني : [2] (وفي سنة ٩٢٣ قتل الغوري .. والسبب المعنوي في خراب مملكته انه قتل طائفـة من بني ابراهيم ، من اشراف ينبع ، وبنى من رؤسهم مسطبة ، جلس عليها أمراء عساكره)

ولنعد الى الحديث عن الامير يحيى بن سبع ، الذي كان

---

(١) : المصدر السابق .

(٢) : رحلة الشتاء والصيف (٧٣ الطبعة الثانية)

السبب فيما جرى من النكبات التي مُنيت بها هذه البلاد الطيبة .

لقد توجه الامير هجار بن دراج — وهو من اشراف ينبع — وهو الذي عينه السلطان في الامارة وكان يحيى ، توجه من القاهرة مع العساكر في رجب سنة ٩١٢ هـ[١]

وتولى هجارُ امرة البلاد ، حتى اول عام ٩١٧ هـ .

فقدم ابنه علي بن هجار القاهرة ، طالباً ان يعين مكان ابيه فأجيب الى ذلك في جمادي الاولى من هذه السنة ، وبقي في الامارة الى شهر جمادى الاخرة من سنة ٩٢٨ ، حيث توفي هو ووزيره — في اسبوع واحد[٢] — في عهد الدولة التركيةويصفه ابن إياس قائلًا : (وكان من خيار من ولي امرة ينبع) .

ولقد حاول الامير يحيى من الدولة الجركسية العفو عنه ، فأرسل ابنه الى القاهرة في شهر المحرم سنة ٩١٤ — طالباً الامان لابيه ، فلما قابل السلطان ، خلع عليه ، وقال له : على ابيك

---

(١) : بدائع الزهور (٤ / ١٠١)

(٢) : المصدر السابق (٥ / ٤٥٧)

ان يحضر ، وعليه مني امان الله [1] .

فحضر يحيى الى القاهرة في شهر رجب ، فأرسل اليه السلطان منديل الامان ، فحضر الى السلطان واجتمع به في القلعة ، ثم خرج من عنده بعد ان اكرمه ، والبسه خلعة ، وفوق رأسه منديل الامان ، فلما نزل من القلعة كادت العامة ان ترجمه ، وسبّوه سبّاً فاحشاً ، ولولا انه كان في صحبة (الامير الدوادار) لرجموه .

فلما بلغ السلطان ذلك نادى في القاهرة : بأن لا أحد من الناس يتعرض لابن سبع ، ولا يسبّه . ومن فعل ذلك شُنق من غير معاودة .
فتكلم الناس في حق السلطان بأنه اخذ من ابن سبع مالاً له صورة ، وضيّع حقوق الحجاج فيما فعل بهم – هكذا وصف الامر ابن إياس [2] .

والغريب في الامر ان الدولة – في اثناء فتنة ابن سبع – كانت تظن ان كثيراً من الخارجين عليها من العرب ، كانوا من

---

(١) : بدائع الزهور (٤ / ١٣٠)
(٢) : بدائع الزهور « ٤ / ١٣٨ »

انصاره . فقد حدثت ثورة في (فلسطين) قام بها بعض العرب الذين كانوا منتشرين في تلك النواحي ، فيما بين (نابلس) و (الكرك) وكان من ابرز اولئك قبيلة (بني لام) التي لا تمت الى ابن سبع باية صلة .

ولكن ابن إياس – مؤرخ ذلك العهد – يشير الى تلك الحادثة بهذا النص : (في ربيع الاول سنة ٩١٤ هـ جاءت الاخبار من الامير أزدمر الدوادار ، انه لما توجه الى « الكرك » و « نابلس » قاتل عربان (بني لام) الذين كانوا من عصبة يحيى بن سبع ، فانتصر عليهم ، وقتل منهم جماعة كثيرة ، واسر من كبارهم نحو عشرة ، وملك منهم مدينة (الكرك) »[١]

ومما تنبغي ملاحظته – حول إمارة ينبع – ان الدولة الجركسية في آخر عهدها : وقد لاقت من امير ينبع يحيى بن سبع من التعب ما لاقت ، ارادت التخلص من ذلك ، فصدر أمر الملك قانصوه الغوري في سنة ٩٢١ باسناد تلك الامارة الى نظر شريف مكة .

يقول ابن اياس : (وجعل للشريف بركات التحدث على بندر الينبع ، يولي فيه من يشاء من تحت يده ، ويعزل من يشاء)[٢]

---

(١) : بدائع الزهور « ٤ / ١١٧ »

(٢) : بدائع الزهور « ٤ / ٤٥٧ » .

سبقت الاشارة الى انه في آخر عهد الدولة الايوبية اصبح الحجاج الوافدون من مصر ، وما وراءه من الاقطار الاسلامية يسلكون الطريق البري ، المار بالعقبة ، والآخذ على ساحل البحر الى الحجاز ، بطريق ينبع ، بعد ان كانوا يأتون بحراً من « عيذاب » و« القُصَيْر » الى « جدة » .

ثم عنيت دولة الجراكسة باصلاح هذا الطريق ، حتى اصبح الطريق الرئيسي للحجاج .

وفي سنة ٦٦٠ [1] سير الملك الظاهر بيبرس البندقداري قافلة الحجاج ، من هذا الطريق ، وارسل معها كسوة الكعبة ، فاكتسب الطريق اهمية لازمته الى عصور متأخرة .

ومنذ ذلك العهد اصبح هذا الطريق تحت رعاية الدولة ، تقوم باصلاحه ، وبيناء المحطات فيه لحراسته ، وبحفر الآبار ، وباتخاذ مختلف الوسائل لضمان سلامة الحجاج .

---

(١) : تاريخ مكة للاستاذ احمد السباعي « ١/٣٠٠» الطبعة الثانية .

ونتيجة لذلك اكتسبت بلاد ينبع جانباً من اهتمام الدولة وعنايتها .

وسارت الدولة التركية على طريقة الدولة الجركسية في ذلك .

وقد اصبح ميناء ينبع – نتيجة لما تقدم – من الموانيء الرئيسية ، ففضلاً عن وقوع « ينبع » في طريق الحجاج ، فان كثيراً من الملوك المتقدمين في الدولة الجركسية وفي الدولة التركية – قاموا باصلاحات واسعة في الحرمين الشريفين ، وفي البلدتين الكريمتين مكة والمدينة ، من بناء مدارس واربطة ، وغيرها ، فضلاً عن تقرير مقررات سنوية من الاطعمة ترسل الى اهل المدينتين ، ولحاجة قوافل الحجاج التي اصبحت تسير تحت امير يتبعه كثير من الجند ، والخدم ، وما تتطلبه قافلة (المحمل) من الحاجات اللازمة .

وكان قسم كبير من كل ذلك يرسل بحْراً من السويس ، ومن الطور الى مينائي « جدة » و « ينبع » .

وكان ما يخص المدينة المنورة من ذلك يرسل الى « ينبع » .

ولهذا لزم اصلاح الميناء وتوسيعها ، وبناء أمكنة لخزن تلك الاشياء حتى تنقل الى المدينة او تمرّ قافلة الحجاج عائدة من

المدينة ، او ذاهبة اليها لتأخذ حاجتها منها .

ففي عهد السلطان سليمان القانوني « ولي السلطنة من سنة ٩٢٦ الى سنة ٩٧٤ هـ » قررت الجرايات من الحبوب والنقود لاهل الحرمين الشريفين ، وخصص قسم من الحبوب يصنع منه طعام للفقراء في المدينتين الكريمتين باسم « دشيشة » وكان مـا يخص المدينة المنورة يرسل الى ميناء ينبع ، فأمر السلطان سليمان بانشاء مخازن لتلك الحبوب ، وبتشييد جامع كبير في البلدة . وباصلاح الميناء وتوسيعه .

ثم في سنة ٩٨٤ هـ هدم ذلك الجامع واعيد بناؤه أحسن مما كان عليه [١] ، وكان ذلك في عهد السلطان مراد .

وزيدت مخازن الحبوب . فأنشئت شونة ثانية مضافة الى الشونة الاولى التي جرى اصلاحهـا ، وتوسيعها ، لتتسع الشونتان للحبوب .

وفي عهد السلطان مراد – سنة ٩٨٤ – جرى توسيع الميناء ، وأصلح الساحل ، ورصف رصفاً محكماً ، وجعـل الرصيف بطول خمسين ذراعاً ، في عرض اربعة عشر ذراعـاً ، ليصلح ويتسع لرسو عدد من السفن .

---

(١) : الاعلام لعبد الكريم القطبي « ١٤٤ »

وتبعاً لما تقدمت الاشارة اليه من الاصلاحيات التي قامت الدولة بها في ذلك الميناء ، انتعشت البلدة .

حافظت ميناء ينبع على مكانتها – في القرن الحادي عشر الهجريّ – ترسو فيها السفن حاملة ما قررته الدولة لاهل المدينة المنورة من جرايات مقررة سنويّاً من الحبوب ، ولوازم الحرم الشريف ، وما يحتاج اليه ركب الحج المصري ، الذي كان يأتي بطريق البرّ ، محاطاً من الدولة بكثير من العناية والاهتمام له أميرٌ خاصٌ يأتي معه عدد كبير من الجند لحراسة الحجاج وللمحافظة على الامن في ذلك الطريق .

ونظراً لعدم الماء العذب في (ينبع) الميناء ، فان مكث قوافل الحج كان لا يعدو المرور الى المحطة الرئيسية التي هي (ينبع النخل) .

ولا تسعفنا المصادر التاريخية التي تحت ايدينا بمعلومات مفصلة عن حالة تلك الميناء ، إلا أننا ندرك من الاشارات الموجزة المدونة في الرحلات ، والمذكورة في بعض كتب التاريخ – في ذلك العهد – ان البلدة أصبحت تتصف بالاستيطان

الدائم في جميـع العام ، لها أميرها ، ولها قاضيها ، وهي وان لم تكن المحطـة الرئيسية للحجاج ، الا ان ارزاق الركب وحاجاته كانت ترد اليها وتبقى فيها ، وهذا مما يحفظ لهـا قسطا من عناية الدولة واهتمامها .

وفي مطلع القرن الثاني عشر الهجري (في سنة ١١٠٥ هـ) مرّ بها الرحالة الشيخ عبد الغني النابلسي (١٠٥٠ – ١١٤٣هـ) فتحدث عنها في رحلته حديثاً نرى بنقله كاملًا امتاعاً للقراء ، بعرض صورة من صور تدوين الرحلات في ذلك العهد ، كما رسمها صاحبها .

قال :

(ثم اصبحنا في يوم السبت الثالث عشر بعد المائتين وهو اليوم السابع من شعبان ، فركبنـا وسرنا الى ان وصلنا قبيل الظهر (الحوراء) [1] بفتح الحـاء المهملة وسكون الواو والراء مفتوحة بعدها الف ممدودة ومقصورة وهي المنزل الحـادي والعشرون من منازل الحاج ، وهو مكان في البرية بين تلال من

---

(١) : الحوراء كانت قديماً اشهر ميناء بحري في تلك الناحية وكانت معروفة الى عهد قريب ، تقـع بقرب بلدة (املج) شمالها ، بحوالي خمسة أميال .

الرمل ، فيه ماء تغلب عليه الملوحة ، يجري على وجه الارض ، بين القصب النابت هناك ، فنزلنا وجلسنا مع الاخوان حصة من الزمان ، وقلنا من النظام في ذلك الآن : —

قد أتينا من مصر منزلة في
سفر الحج ، حيث عُشْبٌ وماء
نحن في جنة النعيم بسير
نحو (طه) وهذه (الحوراء)

ثم ركبنا فوصلنا بعد دخول وقت العصر بقليل الى مكان في البرية بين تلال من الرمل يقال له (الجِمْل) بكسر الجيم وسكون الميم وباللام ، ولا ماء فيه ، فنزلنا هناك حتى صلينا صلاة المغرب مع الجماعة ، وحصل كمال الثواب ان شاء الله تعالى بتمام الطاعة .

ثم ركبنا وسرنا حصة من الليل نحو الاربع ساعات ، ونزلنا هناك في مكان في البرية ، وبتنا الى ان اصبح الصبح ، صباح يوم الاحد الرابع عشر ومائتين وهو اليوم الثامن من شعبان فركبنا وسرنا في تلك البراري الواسعة ، والمهامه التي جوانبها بالسراب لامعة ، حتى وصلنا قبيل الظهر الى وادي

(النّبْط) [1] بقرب ساحل البحر ، والنبط شرقي هذا الوادي، والنبط هـــو المنزل الثاني والعشرين من منازل الحاج ، فنزلنا هناك في ذلك الوادي وقلنا من النظام الذي يترنم بــــه الشادي :

سلكنا للحجاز طريق مصر
وقابلنا بذلك أرْض (نَبْط)
وكان مصيرنا في شط بحر
فتلك اشارة ان ليس نُبْطِي

ولما كنا بمصر انشدنا عزيزنا الشيخ زين العابدين البكري الصديقي حفظه الله تعالى لوالده سيدي الشيخ محمد البكري سبط آل الحسن ؛ انه نظم في هذا المحل لما ذهب الى الحج قوله :

اسقني من مــــاء (نَبْـطٍ)
وليكن في العُمْرِ مَـرّهْ
واترك (الحورا) لأنــــي
أكره (الحورا) و (اكره)[2]

(١) نَبْط : مكان فيه ماء وسكان ولا يزال معروفاً وهـو تابع الان لبلدة (املج) .

(٢) اكره : منزل للحاج فيه ماء مرّ بين (الوجه والحوراء)

ولابن حجلة :

ايا سادة في (الوجه) ُفزْت بقربهم
ولم ادر ان القرب يـؤذن بالبعد

سريتم الى (اكرى) فشردتم الكرى
وخلفتموا في (الوجه) دمعي على خدي

واكرى هو اكره بالهاء اسم للمكان المذكور قريباً وللعلامة الحافظ ابن حجر العسقلاني :

احبتنا لا تنسَوُا العهد من فتى
غريب اليف الحزن مقلته َعبْرَى

تذكرت في درب الحجاز عهودكم
فلم يبق سن في العهود ولا (اكرى)

ولنا من النظام بحسب ما وجدناه من مشقة النفوس والاجسام

اذا ذهبت منـــا الجسوم مشقة
وقد ذابت الارواح من شدةالتعب

فذاك قليل في هوى من نحبه
ولا عجَبٌ بل إنْ بُقيَاهما العجب

ثم بعد صلاة الظهر هناك ، ركبنا وسرنا الى ان وصلنا بعد العصر الى مكان في البرية ، بجانب ماء حفر له في الارض هناك فظهر ، فنزلنا حصة من الزمان بمقدار ما حصلت الراحة واستقر الركبان ، ثم صلينا صلاة المغرب بالجماعة ، وركبنا وسرنا نحو خمس ساعات من الليل قطعناها بالمسامرة ساعة بعد ساعة ، حتى وصلنا الى مكان يسمى (الخضراء) وهـو المنزل الثالث والعشرون من منازل الحاج ، وليس فيه ماء ، وهو اول حكم الشريف شريف مكة فنزلنا هناك ، وبتنا تلك الليلة منتظمي الشمل كالدر في الاسلاك ، وقلنا في ذلك من النظام بمعونة الملك العلام : —

منزل للحجاز في درب مصر
ويسمى (الخضراء) من غير ماء
وهو مبدا حكم الشريف فقوموا
وانظروا للشريف والخضراء

فلما اصبحنا في يوم الاثنين الخامس عشر ومائتين ، وهو اليوم التاسع من شعبان ، ركبنا وسرنا على بركة الله تعالى ، وقد نفد زادنا ونقص مرادنا ، ولم يبق معنا ما يمضغ او يساغ وما على الرسول الا البلاغ ، ولكن قرب المزار ، فاتخذنا من

التوكل شعاراً ، ومن التسليم ازارا، الى ان صار ضحوة النهار، فشرفنا من بعيد ، على بيوت من الشعر : لعرب هناك نازلين، في مكان يسمى (النبّاه) بفتح النون مشددة وفتح الباء الموحدة بعدها الف وهاء ، فقلنا : نباه من النباهة ، وبيوت من البيتوتة وعرب من الاعراب الذي هو الكشف والبيان ، وشعر من الاشعار ، ونحن في حكم بني هاشم ، حتى دنونا من الخيام ، ونزلنا على العرب منهم مؤذنين بسلام ، فاذا هناك امرأة من (جهينة) وبنوها صبية صغار في ذلك الحي متفرقين ، فقلنا : ها هنا يحصل المرام (وعند جهينة الخبر اليقين) فلما استقر بنا المكان ، قامت المرأة الى نار اضرمتها ، وتلك الصبية جمعتها ، وجاءت الينا ورحبت بنا ، ودعتنا الى بيوتها ، واعتذرت لنا بغيبة رجالها ونفى ثبوتها ، واجلستنا في بيوت من الشعر ، ثم عملت لنا القهوة ، وصنعت الخبز على طريقة اهل البر ، والبدو ، وجاءت لنا بشاة وقالت : اذبحوها ، وطبختها لنا وقدمتها بين يدينا مع الخبز من البر المرسل الينا ، وقدمت لنا بطيخاً حلواً، أحمر ، فحملنا معنا مـــا بقي من اللحم المطبوخ ، وظهر الزاد الذي كان لنا في الغيب مضمر ، وبقينا هناك الى ان صلينا صلاة العصر بالجماعة ، ثم ركبنا وسرنا بحسب الاستطاعة وقلنا من

النظام في ذلك المقام :

لقد ظهرت اشارات القبول
فأهدتنا الى نهج الوصول
وزمزمت الحداة وصافحتنا
كفوف العاليات من الاصول
وسرنا والظلام لنا حجاب
نشققه بأقمار الأفـــول
وكدنا ان نطير جوًى وشوقا
الى نحو المدينـــة والرسول
سقى الله الحجاز ويَنْبُعَيْه
وما حويا من الخير المهول
(فينبع) بحرهم نفع البرايا
و (ينبع) نخلهم مثوى القفول
ازال الله وحشة بدوِ كُلٍّ
عن المختار بالانس الذلول

ولم نزل سائرين الى نحو منتصف الليل ، ثم نزلنا في تلك البرية على غير ماء ، واوحنا الركاب والخيل . وبتنا تلك الليلة

في سرور واشتياق وحنين الى المنازل الدانية من اماني العشاق حتى اصبحنا في يوم الثلاثاء السادس عشر ومائتين وهو اليوم العاشر من شعبان ، فركبنا وسرنا الى ان وصلنا بعد الظهر الى (ينبع البحر) ونزلنا هناك في (القلعة) على شاطيء البحر ولا ماء هناك الا الماء الذي يجلب في وقت الصباح ، ويباع وكأنه سمى (الينبع) تفاؤلا بنبع الماء فيـــه ، او لنبـع الارزاق المجلوبة اليه من البحر ، مع ملوحة فيه ، وقلنا في ذلك اشارة الى ما هنالك : —

اتينا محلا شاطيء البحر دافق

لديه بارزاق بها الله ينفـع

جرت منه انواع الجرايات للورى

كما الماء من عين جرى فهو (يَنْبعُ)

وليس هذا المكان بمنزل من منازل الحاج ، وانما المنزل شرقيه اعلى منه ، وهو (ينبع النخل) كما سنذكره قريباً .

وكنا وعدنا الشيخ زين العابدين البكري حفظه الله تعالى اننا اذا وصلنا الى (ينبع البحر) بالسلامة والعافية والنصر ، نرسل اليه مكتوباً بذلك ، ليثبت عنده وعند بقية المحبين لنا ما هنالك . وقد وعد البدوي الذي كان معنا بأنه متى جاءه

بالمكتوب ، يعطيه جوخة جديدة ويوصله الى مأموله والمطلوب، فألح علينا البدوي في كتابة ذلــــك المكتوب الموعود ، بعد حصول الوصول بالسلامة ووفاء العهود ، فكتبنا هذا المكتوب وارسلناه مع العرب الذي كانوا معنا ودفعنا لهم الابل التي حملونا عليها ، وقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى بانجاح المطلوب وهذه صورة المكتوب الذي ارسلناه: بسم الله الرحمن الرحيم .

يا بنَ ودّي دعاءَ صبٍّ غريبِ
في البلاد النائي ، لفقد الحبيب
بَيْدَ أني إذا تنسم من (طيـْـ
ـبَةَ) طيب أزهو بذاك الطيب
واذا لاح بارقٌ من نـواحي
جدّك الصادق الامين النجيب
كنت اشتم منه ريحك حتّى
اجد اللطف ، فيَّ الجناب الرحيب
وارى الفرع عند اثار أصلٍ
وأرَى السّرّ في سناك العجيب
حبذا (الوجه) والربيع الذي ثمّ ـــ
ـــ وانواع نغمة العندليـــــب

ومشينـــا في شاطيء البحر والأعشا ــ
بُ من حولنـــا على تعشيب

ومياه لنــــا هناك وجدنا
عند عُرْبٍ قريبــــة التعريب

حيث أنعامهم تدر لبانــــا
لذة الشاربـــين ذات شنيب

والزمان الزمان فيه اعتدال
وامان ، وزايدُ التقريب

كل هـــذا بلطف همة مولى
صادق الحـــال والمقال نسيب

وهو (زين العابـدين) تسامى
بابي بكر وهو خـير صحيب

دام في (مصر) مجده ، بيت قوم
يستمدون من عــــلاه القريب

يا هماماً يفوق كل همام
واريبـــا يزري بكل اريب

بعـدت بيننـا وبينك انــــوا
ع مسافات ، ذا الطريق النهيب

فتأتت اليك منا قصيد
تشتكي الشوق عذبة التشبيب
وعليك السلام ما حنّ صبٌّ
لتلاقي حبيبه في المغيب
والى نحوك التحية منا
ما زها الروض باللباس الخصيب

وانهينا اليه احوالنا بالسلامة، وبلغنا الى جنابه تحيته وسلامه

ثم أننا سألنا عن السير الى المدينة المنورة فأخبرونا ان العرب الذين هم عرب (حرب) حاصل بينهم وبين امير الحجاز (سعد بن زيد) حفظه الله تعالى منازعة و"حرب"، وانهم واقفون في (وادي الصفراء) يمنعون كل من سار الى المدينة ، وقد ظهرت منهم للزايرين خصلة قبيحة كمينه ، وان لا محيص الا بالسفر الى جوار سعد بن زيد الهاشمي امير الحجاز ، فانه يقدر على انفاذنا الى تلك الجهة والجواز ، واما على غير هذا الوجه المذكور ، فانه لا يمكن اصلاً كما قال الشاعر المشهور :

ايا دارها بـ (الخيف) ان مزارها
قريب ، ولكن دون ذلك اهوال

فلما رأينا الامر كذلك ، وتحققنا صعوبة هذه المسالك ، طلبنا

من نكترى منه خمسة من الجمال ، ونسير الى جهة (سعد بن زيد) لنبلغ به غاية الآمال ، ثم بتنا تلك الليلة بنية السفر ونسأل من الله تعالى وفضله العميم حصول الظفر .

فلما اصبحنا في يوم الاربعاء السابع عشر ومائتين وهو اليوم الحادي عشر من شعبان ، جاء الى زيارتنا في (قلعة الينبع) في مكان مبيتنا هناك الشيخ الصالح ، والناجح الفالح ، در الاسلاك محمد بن ابراهيم من اولاد الشيخ الكفرسوسي ، واقاربه عندنا معروفين في (دمشق الشام) منسوبين الى قرية (كفرسوسة) المشهورة بين الانام ، ومولد هذا الشيخ في المدينة المنورة ، وهو الآن قاضي (الينبع) بسيرة مطهرة من منذ اربعين سنة بعد موت والده ، وذهاب طارفه وتالده ، واخبرنا انه لما كان في المدينة عزم على الذهاب الى مصر المحروسة فرأى تلك الليلة كأنه في الحجرة النبوية المأنوسة والهاتف الالهي ينشده هذا البيت :

فلما افاق لم يكن له عزم على الذهاب الى مصر وهو هذا البيت : —

ايا راحلاً عنا لدنيا يصيبها

اتتبع ما يفنى ، وتترك ما يبقى ؟

واخبرنا انه كان في ما مضى رجل من الاشراف من بني هاشم ، وهو السيد حسين ابن السيد الصديق الاهدل اليمني ، فامتحن في المدينة ، وقال له بعض الناس : انك لست من الاشراف [1] .

واخبرنا ابن الكفرسوسية المذكور انه حسب تاريخ هذه السنة (سنة خمس ومائة والف) في عدة تواريخ الاول قوله تعالى (وله مسكن في الليل والنهار وهو السميع العليم) والثاني قوله (يا من عوايده جميله ولطف خفي) بسكون الهاء في جميله ، والثالث قوله :(يأتي من الطاف مولانا ما لم يكن في البال) ، وقد شاعت هذه التواريخ في المدينة المنورة كما وجدنا ذلك عند وصولنا اليها وقد قلنا في مكان التاريخ الثالث هكذا (يأتي من العلم لطف لم يكن في البال) ليدخل في وزن المواليا ونظما قبله على طريقة اهل المدينة ، في التاريخ فقلنا مع زيادة ما بعد (أرّخ) في المعراج الثالث : —

كن واثقاً بالاله الواحد الفعال

تنل مرادك ، وتبلغ غاية الامال

---

(١) : اورد هنا حكاية لم نر لها محلّاً ، لانها مما لا يلائم افكار كثير من القراء .

في علم ربي سنة أرخ لها من قال :

(يأتي من العلم لطف لم يكن في البال)[1]

ثم عزمنا على السفر بعد اداء صلاة الظهر الى (ينبع النخل) وركبنا وسرنا فلما خرجنا الى البرية ، واذا برجل بدوي مقبلًا يرقص على ناقة له ، حتى دخل (ينبع البحر) ثم خرج من (ينبع البحر) فارس يركض بفرسه ، فوصل الينا ، وسلم علينا ، وقال لنا : جاء من حضرة سعد بن زيـــد كتاب الى حاكم الينبع : لا تتركوا الشيخ وجماعته يخرجوا الينا وحدهم ، فان الطريق مخوف بيننا وبينكم ، ارسلوا مع الشيخ وجماعته عبدالله بن عمرو الهاشمي احد اشراف الحجاز ، يأتي بـــه الى جهتنا . فالمراد انكم ترجعوا الى (الينبع) وفي غد يـذهب معكم ، وان اردتم قفوا هنا حتى يتهيا ويأتي اليكم ، فاخترنا الرجوع ، فرجعنا وبتنا تلك الليلة في (ينبع البحر) في بيت الحاكم المذكور ، في أتـم انبساط واكمل سرور ، حتى اصبحنا في يوم الخميس الثامن عشر من شعبان فاكترينا الجمال ،

---

(١) الجمل المذكورة اذا احسبت حروفها بطريقـة حساب الجمّل (ابجد) يكون مجموعها (١١٠٥) وهي سنة مـرور المؤلف بينبع .

وركبنا وسرنا ، وركب معنا الشريف عبدالله ابن عمرو الهاشمي على ناقة له ، ومعه اثنان على ناقتين ، حتى مررنا في الطريق على قبر في الفلاة يقال له (قبر الغريب) بضم الغين المعجمة وفتح الراء وتشديد الياء المثناة التحتية والباء الموحدة ، صيغة تصغير ، وهو رجل من الصالحين مات ودفن هناك ، فقرأنا الفاتحة له ودعونا الله تعالى [1] .

ثم سرنا حصة من الزمان ونزلنا هناك في البرية تحت شجرة ام غيلان ، وشربنا القهوة ، واسترحنا هنيهة في سرور وامان .

ثم ركبنا وسرنا فوصلنا وقت العصر الى (ينبع النخل) وهي قرية كبيرة ذات نخل كثير ، ومياه غزيره ، وهي المنزل الرابع والعشرون من منازل الحاج ، وبقي على الحاج الى مكة سبعة منازل ، بدر ، ومنزل القاع ، ومنزل رابغ ، ومنزل قديد ، ومنزل عسفان ، ومنزل وادي فاطمة ، ثم الى مكة المشرفة) [2] . انتهى كلام النابلسي .

---

(١) : قراءة الفاتحة على القبور بدعة ، وكذا الدعاء ، والسنة ان يدعو الزائر للميّت بالدعاء المأثور ، فهو بحاجة الى من يدعو له .

(٢) : الرحلة الكبرى : (الحقيقة والمجاز من الورقه ٢٠ الى ٢٣ نسخة المكتبة الوطنية في فينّا) .

وفي اول القرن الثالث عشر الهجري ، عندما عزم محمد علي باشا والي مصر ،على غزو الدولة السعودية محارباً للدعوة الاسلامية الصحيحة خوفاً من ان تنتشر وتعم جميع البلاد الخاضعة للنفوذ التركي ، كان أول ما اتجه إليه اصلاح ميناء ينبع .

فقد امر باقامة عدد من المباني الحكومية والمستودعات ، وببناء قلعة في المدينة ، وباحاطة المدينة بسور [1] ، لتكون مهيأة لاستقبال العساكر العظيمة التي سيرّها بقيادة ابنه أحمد طوسون .

ولنستمع الى مؤرخ نجد ، الشيخ عثمان بن بشر ، وهو يصف وصول تلك الجيوش ، ويذكر طرفاً من اخبارها .

قال في كتاب (عنوان المجد في تاريخ نجد) — ص ١٥٥ ج١ — الطبعة الاولى : —

وفي هذه السنة (سنة ١٢٢٦ هـ) اجمع أمراء الترك على المسير الى الحجاز ، وأعدوا جميع آلات الحرب من السفن والمدافع ، والقنابر والبنادق ، وجميع آلاتها ، ومـا يحتاجون اليه من الاموال والذخائر من الطعام وغيره ، فاجتمع العساكر من

---

(١) : دليل الحج تأليف محمد باشا صادق (٢٩)

اصطنبول ونواحيها وما دونهـــا الى الشام ومصر . والرئيس المقدّم بهذا الامر من جهة الترك صاحب مصر محمد علي ، فسير العساكر المذكورة براً وبحرا فسير عساكر في السفن .

واستولى على بندر « الينبع » ثم سير ابنه احمد طوسون بالعسكر الكثيف مع البر ، فاجتمعت العساكر البرية والبحرية فكانت العساكر التي استقلت من مصر من الترك واهل المغرب نحو اربعة عشر الف مقاتـــل او يزيدون ، ومعهم من الخيل عدد كثير .

فلما اجتمعت العساكر في (الينبع) هرب منه رئيسه جابر بن جبارة وقصد المسلمين [1] . فلما سمع سعود بمسيرهم أمر على نواحي المسلمين من الحاضرة والبادية من اهل نجـد والجنوب والحجاز وتهامة وغيرهم ، فسيرهم مع ابنه عبدالله فنهض عبد الله بتلك الجنود ونزل (الخيف) المعروف من (واديالصفراء) فوق المدينة النبوية واستعدوا لاقبال العساكر المصرية ،واجتمع معه من الجنود نحو ثمانية عشر الف مقاتل وثمانمائة فارس .

---

(١) : آل جبارة من روساء قبيلة جهينة من اهل ينبع النخل وممن عرفناه منهم: الشيخ محمد بن جبارة ، من الرجال الافذاذ، عقلًا وكرماً ، وتوفي حوالي سنة ١٣٥٧ ه

ولما نزل عبدالله بالخيف امر علي مسعود بن مُضَيَّان ومن معه من بوادي حرب وجيش اهل الوشم ، ان ينزلوا في الوادي الذي في جانب منزلهم الذي هم فيه مخافة ان يأتي معه دفعة من الترك فيفتكوا بالمسلمين ويخفرونهم ،

ثم ان العساكر المصرية والتركية زحفت على المسلمين ، واقبلت عليهم ، فارسل اليهم عبدالله طليعة جيش وفرسانا واستعد لهم الترك .

وحصل على المسلمين هزيمة وقتل اثنان وثلاثون رجلاً فنزل عسكر الترك مقابل عسكر المسلمين ، فالتقى الفريقان ، وجعل عبدالله على الخيل اخاه فيصل بن سعود ، وحباب بن قحيطان المطيري ، فحصل قتال شديد ، وصبر الفريقان وكثر القتل في الترك والمسلمين ، وصار عدة وقائع ومقاتلات في هذا المنزل ، وابتلى المسلمون بلاء شديداً . فكلما حمل الترك على جمع المسلمين انهزم الاعراب وثبت غيرهم . واقاموا على ذلك نحو ثلاثة ايام فأرسل عبدالله الى مسعود ابن مضيان ومن معه من حرب، واهل الوشم ، وامرهم ان يحملوا على الترك فاقبلوا وصار أول حملة عليهم مع جملة جنود المسلمين، فانهزمت العساكر المصرية لا يلوي احد على احد .

وانكشفوا عن مخيمهم ومحطتهم ، وولوا مدبرين ، وتركوا المدافع وهي سبعة ، والخيام والنقل والرحايل وكثير السلاح وما في محلهم من جميع الات الحرب والذخائر ؛ ولا نجا منهم الا اهل الخيل الذين ادبروا مع باشتهم . ومات غالب خيولهم حفاً وظمأ ، حتى وصلوا الى (البُريكة)[1] وركبوا منها في السفن الى (الينبـع) واستقروا فيه وقتل من رجالهم عدد كثير واخذ المسلمون منهم من الاموال والسلاح ما لا يحصى .

والذي حرر لنا ان القتلى من الترك اكثر من اربعــة آلاف رجل .

وقتل من المسلمين من جميع النواحي نحو ستمائة رجل منهم مقرن بن حسن بن مشاري بن سعود وبرغش بن بدر بن راشد الشيبي ، وسعد بن ابراهيم بن دغيثر ورئيس قحطان هادي بن قرملة ، ورئيس عبيدة مانع بن كدم ، وراشد بن شبعان اخا محمد بن سالم وهو امير بني هاجر ، ومانع بن وُحَير العَجْمي الفارس المشهور ، وغيرهم .

وكانت هذه الوقعة في العشر الاواخر من ذي القعدة في هذه السنة . انتهى كلام ابن بشر

---

(١) : البُرَيكة : ميناء صغير في جنوب ينبــع ، ويظن بعض الباحثين أنها موقع ميناء « الجار » القديم .

ان مما يسجل لهذه البلاد بمداد من الفخر ، ان احد رؤساء أهلها ، وأبرز شيخ من مشائخ عشائرها ، الشيخ جابر بن جبارة وقف ذلك الموقف المشرّف ، فلم ينقد للغزاة الطامعين ، ولم يكن من ضعاف النفوس الذين كان المال كل شيء في حياتهم ، بل كان عالي الهمة ، شريف النفس ، فثبت على المبدأ ، هو وشيخ من مشائخ حرب ، مسعود بن مُضَيّان الذي انضم مع بعض قبيلته الى جيوش المسلمين ، حتى وصلت الجيوش التركية المصرية الى المدينة فقبض عليه في سنة سبع وعشرين ومائة ، بعد ان افسدوا الضمائر بالرشاوي .

يقول احد مؤرخي الحجاز : (اجتمع كثير من عساكر البر والبحر في « ينبع » ومعهم صناديق من الاموال ، فأخذوا في تأليف العربان واستمالتهم ببذل المال ، وكان ذلك بعد مكاتبتهم مع شريف مكة الشريف غالب ، فكانوا يكاتبونه ويكاتبهم سرّاً ، فكانوا يعملون بتدبيره ، وبما يعتمد عليه ، فكان ذلك سبب اقبال مشائخ العربان عليهم ، وارسلوا الى شيخ مشائخ حرب كافة ، فحضر ، فأكرموه ، فخلعوا عليه وعلى من حضر معه من اكابر العربان ، فألبسوهم الفراوي السمّور ، والشالات القشميري ، وصبّوا عليهم الاموال ، واعطوا شيخ

مشائخ حرب مائة الف ريال فرانسة عينا ، ففرقها على المشائخ ، وخصه هو بمفرده من ذلك ثمانية عشر الف ريال ، ثم رتبوا لهم علائق ونقوداً تصرف لهم كل شهر ، فعند ذلك ملكوهم الارض ، وصاروا يسعون في خدمتهم ، وتقدمهم الى ان ادخلوهم المدينة المنورة في شهر ذي العقدة من هذه السنة (١٢٢٦ هـ) واخرجوا من كان فيها ، وقبضوا على ابن مضيّان ، الذي كان متأمراً في المدينة) . انتهى .

اوردنا ما تقدم – استطراداً – لكي يدرك القارىء حالة تلك البلاد في ذلك العهد ، وليدرك ان العرب انفسهم هم الذين يجرون الشرّ لانفسهم ، فلولا خيانة الشريف غالب ، وممالاته للاعداء الغزاة ، ولولا وسائل المكر والخيانة ، وشراء الضمائر لم يستطع الاعداء ان ينالوا من العرب من اذلالهم ، والاستيلاء على بلادهم ، والتحكم فيهم ، ما نالوا .

انتعشت حركة العمران في اثناء القرن الثالث عشر ، بسبب اتجاه محمد علي باشا لغزو بلاد العرب ، واتخاذ ميناء ينبع لانزال كثير من معدات الحرب ، ولوازم العساكر .

وبعد استيلاء تلك الجيوش على البلاد انحصر ملك محمد علي باشا في مصر ، وبقيت البلاد خاضعة للدولة التركية (في سنة ١٢٥٦ هـ) .

وكان محمد علي قد ابقى قسماً من عساكره بقيادة قائد يدعى سليم باشا آتسزبير ، في وادي الصفراء بين ينبع والمدينة ، وغرضه من ذلك التضييق على قبائل العرب هناك ، من سكان تلك البلاد ، من حرب وجهينة ، بعد ان قطعوا كثيراً من نخيل تلك البلاد ، وهدموا قراها ، لاخضاع القبائل بالقسر والقوة ، ولكنهم تحصنوا في الجبال ، وقطعوا طرق المواصلات ، فحصل لاهل المدينة وما حولها ضيق شديد ، واشتد الغلاء ، ولكن العساكر انتصرت في آخر الامر بقيادة الشريف محمد بن عون ، الذي قصد اعظم معقل كان للعرب وهو جبل « الفِقْرة » وفيه نخيل وزروع لهم ، فحاصرهم فيه ، فانقادوا بعد أن احرق منازلهم ، وقطع كثيراً من نخيل ذلك المكان [١] .

وفي آخر هذا القرن بدأ شأن ينبع يضعف حتى اصبحت عبارة عن قرية صغيرة .

---

(١) : انظر تفصيل ذلك في كتاب خلاصة الكلام ص ٣١١.

يصفها محمد باشا صادق في كتابه « دليل الحج[1] » عندما مرّ بها في يوم السبت ٢٥ ذي القعدة سنة ١٢٩٧ هـ فيقول : (هذه البلدة على البحر ، وبها ميناء مشهور المدينة المنورة ، والوابور يرسو على بعد ١٥٠ متراً ، من الرصيف ، وبها ٨٠٠ بيت وسوق يباع بها كل شيء يلزم للحجاج ، وبعض خضروات وبها نحو ٥٠٠٠ نفس ، واغلب تجارهـا من مصر والصعيد ، وعند موسم الحج تأتي اليها العرب للتجارة ، واما في غير اوان الحج فلا يوجد بها شيء ، وتصير كالخراب ، وتحمل اليها الغلال من مصر لترسل الى المدينة ، وبها شونة كبيرة ، وبرج بـه مدفع من نحاس ، وعشرة طوبجية من الترك ، وبها محل للكرنتينة ، مبني في غاية الانتظام ، ومحافظها من اهلها برتبة قائم مقام ، معين من ضباط العساكر الموجودة بالمدينة ، وتحت أوامر محافظها ، لان هذه البلدة تحت حكومة الدولة ، وسورها متهدم ، ثم بنى جميع ما بها من الابنية الميرية كالشونة والمحافظة والبرج والسور ونحوها قد صار بنـاؤه في مدة المرحوم محمد باشا والي مصر سابقاً ، ولم يتجدد منها ذكر شيء ، بعد ان صارت تحت ادارة الدولة ، بل آل أغلبه الى السقوط ، وليس هناك ابار

---

(١) : « ص ٢٩ و ١٣١ » .

وانما تخزن مياه السيل في صهاريج ، وتباع على الحجاج ، وثمن زق الماء عندهم غرشان . والزق هو قربة صغيرة ، تستعمله العرب للماء ، وكل ثلاثة زقاق او اربعة ملء قربة مصرية ، ومشهورة بكثرة الذباب للعفونات ، من عدم المراحيض بالمنازل ، فأما اهاليها من نساء ورجال فيتبرزون في الفلاة ، وعلى شاطىء البحر ، وقد بلغت الحرارة وقت الزوال ٣٨ درجة ، وبعد الحج تأتي الوابورات اليها لتحمل الحجاج الى السويس) . انتهى

ما كنا نستحسن ايراد هذا الوصف لولا ان واجب المؤرخ يقضي بأن يسجل الوقائع والاخبار جميعها ، ولكي يدرك القارىء مبلغ الاهمال الذي كانت الدولة التركية ترتكبه في حق البلاد التي بسطت عليها نفوذها .

وقال ايضاً : (وقد اتفق لي التوجه اليها في سنة ١٣٠٣ ﻫ فوجدت العساكر مجتهدة في بناء سور للبلدة ، طوله ٣٠٠٠ ذراع ، تحفظاً من هجوم الاعراب ، وتسهيلاً للهجوم على المعتدين منهم ، وصيانة للذخائر ، والسبب انه وقعت ثورة بها من العربان بني ابراهيم : وهجموا على السجن واطلقوا منه شخصين ، وقتلوا أربعة من عساكر الضبطية ، ولما وصل الخبر الى والي مكة ارسل طابورا من العساكر الشاهانية ، اعني خمسمائة نفر ، ومدفعاً واحداً ، واطفئت الفتنة ، واقيم السور) . انتهى .

وعلى ذكر وصف محمد باشا صادق ، مدينة (ينبع) نذكر بهذه المناسبة ان السيد جعفر البيتي المدني [1] كان قد مرّ بهذه المدينة في النصف الاخير من القرن الثاني عشر ، فوصف ما قاساه بها من أذى الحشرات ، بقصيدة تعتبر من عيون شعر ذلك الشاعر ، بحيث أن كثيراً من مترجميه يوردونها في سياق الثناء على شعره ، وقد عارض بتلك القصيدة قصيدة فتح الله ابن النحاس الحلبي ، المتوفي في المدينة المنورة سنة ١٠٥٢ — ومطلع قصيدة ابن النحاس :

رأى اللـُّوْمَ من كل الجهات فراعَهُ
فلا تنكروا اعراضه ، وامتناعه

وآخرها :

وكل اتحاد للهوى فيه سَوْرَةٌ
ولم يكسب الخمور إلا صداعه

في ٤٢ بيتاً .

وينبغي — قبل ايراد قصيدة البيتي — ان نشير الى ان

(١) توفى سنة ١١٨٢ هـ وله ديوان شعر مخطوط ، في مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت في المدينة ، وفيه اهاج مقدعة لامام من ائمة الاسلام الاجلاء .

كثرة الحشرات في ذلك العهد في ميناء ينبع ؛ كانت بسبب وجود مستودعات للحبوب التي تخزن هناك بعد وصولها من مصر ، حتى يتسنى ارسالها للمدينة ، فتتولد تلك الحشرات في المستودعات ، ومن اثر رطوبة الارض تتكاثر ، يضاف الى هذا عدم عناية من يتولون امر تلك الحبوب بنظافة اماكنها ،

ثم ان ذلك العهد "عهد" لم تكن وسائل ابادة تلك الحشرات معروفة ، ولهذا "فقلّ" ان يخلو منها مكان .

وما لنا نذهب بعيداً ، لقد مررت في عام ١٣٦٧ - بمدينة (معان) وهي من امهات مدن بلاد « الاردن » فسألت عن فندق ابيت فيه ، فذكر ان في المدينة فندقين احدهما في محطة السكة الحديدية ، وهو بعيد عن البلدة ، والثاني في وسط البلدة ، وان كان اقل مستوى من الاول إلا أنه أقرب ، فاخترت السكنى فيه .

وبينما انا عند بابه ، والخادم يتناول حقيبتي إذ أبصرت مكتبة بالقرب منه ، فأمرت الخادم ان يختار لي غرفة ، ويضع حقيبتي فيها ، وتركتها معه وذهبت الى المكتبة ، فوجدت فيها أناساً استهواني حديثهم الى الجلوس معهم ، ثم الذهاب الى منزل أحدهم للعشاء ، ولم أعد إلى الفندق إلا بعد صلاة العشاء ،

فوجدت بوابه ينتظرني ، وسرعان ما انصرف بعد أن ارشدني إلى مكان حقيبتي .

كان الفندق مظلماً إذ ليس فيه كهرباء ، والاضاءة فيه بمصابيح « الغاز » الخافتة النور ، ولما تمددت على السرير لانام — وهو من نوع أسرّة الخشب والخوص التي كانت مستعملة في المقاهي بمكة قبل عشرة أعوام — أحسست لذعاً شديداً بعدما تمددت فوق السرير ، فحاولت أن أتبين سبب ذلك اللذع ، ولكنني لم استطع لضعف نور المصباح المعلق في الجدار ، فلما نزعته وادنيته من السرير ، ابصرت ثوبي ممتلئاً من « البَقّ » ونظرت الى السرير فوجدت ثقوب خشبه مملوءة من تلك الحشرة الخبيثة .

ماذا أفعل ، وثيابي قد أصبحت ملوثة مملوءة به ، وجلدي يلتهب من حرارة لذع ذلك « البق »

ناديت ، ورفعت صوتي بالنداء خادم الفندق ، فلم يجبني أحد ، فطرقت غرفة مجاورة لغرفتي فوجدت فيها احد اخواننا من أبناء البادية : ولما سألته : الا يوجد أحد من خدم الفندق؟ أجاب : ان عادتهم الخروج في الليل ، ولا يعودون الا في الصباح ، وهم يغلقون بابه على من فيه خوفاً من ان يسافر احد منهم قبل ان يدفع الاجرة .

أسرعت الى الباب ، وحاولت فتحه فلم اقـدر فصعدت فوق السطح ، وكان واسعاً ، وكان الجوّ اقرب الى البرودة منه الى الاعتدال ، ولكنني صبرت على البرد ، ورميت ملابسي بعيداً عني ، وبقيت كما « خرجت من بطن امي » اعمـــل أظافري في جلدي ، وادور في ذلك السطح ماشياً ، واذا تعبت جلست محقوْفزاً ،وهكذا أمضيتهاليلةً ليلاءَ في « فندق الحجاز » في مدينة (معان) في هذا العصر الذي انتشرت فيـــه وسائل الحضارة .

واذن فلا غرابة أن يجد الشاعر البيتي مدينـة (ينبع) قبل قرنين من الزمن بالصورة التي صورهـــا في قصيدته التي تقضي علينا الامانة للعلم ، والتجرد من كل الاغراض أن نوردها كاملة ، ثم نتبعها بقصيدة شاعر نظر الى (ينبع) بغير العين التي نظر اليها بها السيد البيتي ، ذلك الشاعر هو عبدالرحيم القفطي ، الذي جاء بعد البيتي بما يقارب القرنين من الزمن :



رأى « البَقّ » من كل الجهات .. !!

قصيدة السيد جعفر البيتي ، عارض بها قصيدة فتح الله بن النحاس الحلبي المتوفي سنة ١٠٥٢ هـ في المدينة :

رأى (البَقّ) من كلّ الجهات فراعَهُ
فلا تنكروا تحكيكه والتياعَهُ

ولا تسألوني كيف بِتُّ فانّني
لقيت عذاباً لا اطيق دفاعَهُ

نزلنا بمَرْسى (ينبع البحر) مَرّةً
على غير رأي ، ما علمنا طباعَهُ

نقارع من جند (البعوض) كتائبا
وفرسان (ناموس) عدمنا قراعَهُ

فلو عاينت عيناك ميدانَ ركْضه
رأيت جريءَ القلب فيه شجاعَهُ

وجندا من (الفيران) في البيت كُمّناً
متى وجدوا خرقاً أحبُّوا اتساعَهُ

وسُرْبة (قمل) تنبري إثْرَ سُرْبَةٍ
خفافاً الى مَصّ الدماء سراعَهُ

ينازعها (البرغوث) لحماً فليته
رَضي بتلافي ، واكتفينا انتزاعَهُ

فلو يجد الملسوعُ من عُظم ما بــه
من الصخرِ درعاً لاستخار ادّراعــهُ

فرب قميص كان شرّاً من العرى
اذا ضمــه الملتــاع زاد التياعــهُ

كأني وكيــل للــبراغيث قائــم
أقيتُ لهُ ابتامــهُ وجياعــهُ

اذا شبــع الملعون مجّ دمــاً على
ثيابــي ، فلا أحيا الآله شباعه

فــما رشّنا بالدمِ الا لسانــهُ
ولم ترعني مكرُهُ وخداعــهُ

سلوا عن دمي ساري البعوض فأنني
علمت يقينا انه قــد اضاعــهُ

فلله جلد صار بالحكِّ اجرباً
اخاف عليــه (يا فلان) انقشاعهُ

فلا تعذلوا المسكين إنْ عيل صبرُهُ
واظهر من جور الزمان انفجاعــهُ

فقد مارس الاهوال في أرض (ينبع)
ووطّاً فوق النائبات اضطجاعهُ

ذرعت الفنا فيـــه يميناً ويسرة
وصيّرتُ صبري والتأسي ذراعـــهُ

فاعدمني طـــول المقـام تجلدي
وكشّف عن وجه اصطباري قناعـهُ

اذا رنمْ (الناموس) حـولي اعلّني
وصدّع قلبي سجعه وابتداعـــهُ

وان مصْ من لحمي ، وطار تبعتهُ
إلى فائتٍ منه ارجّي ارتجاعـهُ

عدمت غِنـــاءً مِثل انغام سجعه
فـــيما كان اشنى سجعهُ وابتداعهُ

ضعيف قـويّ لا يقـرّ من الاذى
واضعف منه من يُرجّي اصطناعهُ

وكم نفدت في دفعـــه كل حيلة
ولو كان بالحسنى طلبت اندفـاعهُ

فيـا لاصيحابي « اقتلوني[1] ومالكا »
فقد مدّ نحوي مفسد « البق » باعهُ

---

(١) : اشارة الى البيت المعروف :

اقتلوني ومالكا واقتلوا مالكاً معي

أحبُّها .. وأُحِبُّ القاطنين بها

وهذه قصيدة محمد عبد الرحيم القفطي ، في (ينبع)[1]

امن تــذكر اكل (الحُوت) بالرطب
اعرضت عن لـذة العُنّابِ والعنب؟
ام شوق نفسك ا (لعدوس) اورثهــا
كراهة التّين والرمـــان والقصب؟
اما ترى (النيل) في تلك البطاح جرى
فجاء من رؤية الازهـــار بالعجب
فكيف تحزن بالأرياف من اسـف
على ديار ِشرّاءِ المــاءِ والحطـب
نعم ، اميـل لهـاتيك الديار ، ولو
اصبحت فيهـا عـديم المال والنسب
امــا .. وحرمة[2] ما في البحر من سمك
وما حوى الحوت من رأس ومن ذنب

---

(١) : كتاب أدب رضوى ، (٦٤) وفي هذا الكتاب بحث موجز عن هذا الشاعر « ص ٥٨ وما بعدها » ولكن لم يحدد فيه زمن الشاعر .

(٢) القسم بغير الله شرك ، ولو قال : « أمـــا وخالق » لسلم من ارتكاب الخطأ .

ما النيل عندي سوى نيل الترشف من
ماء (العصيلي [1]) اذا ما صب في القرب

شوقي الى (القاد)[2] في الاحشاء يوقد من
نار اشتياقي الى (منجارة) [2] العرب

ومهجتي في رصيف (البنط) [2] ما برحت
رهينة لم تحل عنه ولم تغب

وصورة (الصور) [2] في الاحشاء صورها
قلبي و (حلة عبس) [2] غاية الطلب

وفي (الخريق) فؤادي ضاع واسفى
على الخريق بذاك الحي في لهب

قد شاب رأسي ، ولو اني نظرت الى
(باب الشبيبي) [3] لكان الرأس لم يشب

---

(١) : العصيلي : مكان خارج ينبع فيه بئر .

(٢) : أسماء مواضع في ينبع .

(٣) : اسم احد الصهاريج لجمع مياه الأمطار .

أهْوى وقوفي لدى (باب الحديد)[1] لكيْ
أرى مصابيح (سوق الليل) [2] كالشهب

في (رقعة السمن)[3] لي َقصدٌ ولي َغرَضٌ
وعند (سوق الفواتي) [3] منتهى أربي

يا فوز من كان موجوداً هناك اذا
قام (الحراج) وصار البيع في الرطب

والمشترون له حازوه وانقلبوا
بنعمة في (الفواتى) خير منقلب

يا عرب ذاك الحمى كيف السبيل الى
قلبي الذي قد نشا في حبكم وربي ؟

ناديته يوم ترحالي احدثه
بانني راحل عنه ، فلم يجب

من ذا يلوم على شوقي الى بلدٍ
العيش في َغيْره ِ للقلب َلمْ يطب ؟

---

(١) : من اسواق ينبع .
(٢) : موضع يباع فيه السمن .
(٣) : سوق الفواتي : مكان يباع فيه الرُّطب .

ما عاقني عن رجوعي في اماكنها
الا تراكُمُ احزاني بموت ابي

ما بال دهري اذا ما رمت نجدَتَهُ
في مطلبٍ ساءني بالعكس في طلبي ؟

من لي برد أوَيْقَاتٍ لنا سلفت
في (ينبع) الخير والآمال والادب ؟

خير البلاد وارجاها واقربها
نفعاً وارجحها كسباً لمكتسب

وكيف لا وهي من دون البلاد غدت
بابا لبلدة (طه المصطفى) العربي

ارجو وآمل ان الله يجعلني
فيها مقيما مدى الايام والحقب

ضعف شأن الحج ، بسبب عجز الدولة الحاكمة عن حماية طريق الحجاج المار بينبع ، يضاف الى هذا اختلال أمر الدولة التركية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين حتى آل الامر الى انقطاع مجيء الموكب الرسمي للحجاج بطريق البر ، وضعفت تلك البلاد التي كانت حياتها كثيراً ما تقوم على قدوم الحجاج اليها .

وفي القرن الرابع عشر طرأ تغيير على طريق الموكب «الرسمي» للحجاج ، فصار يأتي عن طريق البحر من السويس الى « ينبع » وبدأت « ينبع البحر » تنتعش قليلاً ، في الوقت الذي ضعفت فيه « ينبع النخل » التي كانت المحطة الرئيسية للحجاج ، فأصبحوا يمرّون بها مروراً ، ولا يمكثون فيها ، بينما كانوا في السابق ، يقيمون ثلاثة أيام أو أربعة .



لنقرأ مع القارىء الكريم شيئاً مما كتبه الباحثون عن مدينة « ينبع » في اول هذا القرن ، وفي منتصفه .

قال اللواء ابراهيم رفعت باشا — امير الحج المصري في سنة ١٣٢٠ — في كتابه « مرآة الحرمين » :

« وصلنا ينبع ، في غرة المحرم سنة ١٣٢١ « ٣٠ مارس سنة ١٩٠٣ » وقد استقبلنا بالميناء محافظ ينبع ، ورئيس عسكرها ، بلباسهما الرسمي ، وحيتنا العساكر الشاهانية مصطفة على رصيف الميناء ، ثم أنزلت الأمتعة والمحملُ الى البرّ ، و زلنا واحتفل بالمحمل احتفالاً عظيماً[1] ، هرع اليه الناس جميعاً لانهم لم يشاهدوا

---

(١) الاحتفال بالمحمل من البدع ، بَلْ المحمل نفسُه بدْعة ، حدثت في القرن السابع الهجري — تقريباً — واللواء ابراهيم رفعت — صاحب « مرآة الحرمين » سلفي العقيدة ، كثيراً ما يوضّح في كتابه هذا الوجهة الشرعية في كثير من الامور التي يتعرض لذكرها في رحلته ومن أمتع ما كتبه ، وتعرّض له في كتابه هذا (زيارة القبور) فقد أوضح الزيارة الشرعية وبيّن ان الدعاء عند القبور شرك ، ولمّا قرأ بعض القصائد المكتوبة على ضريح حمزة — عم النبي صلى الله عليه وسلم — ورأى ما فيها من المبالغات ، أنكر ذلك وبالغ في الانكار . وبالاجمال فكتابه — فضلاً عن كونه من انفع كتب الرحلات واجودها — يتضمن تحقيقات دينيّة وملاحظات قيمّة ، تدلُّ على ما يتصف به صاحبها من حسن عقيدة تغمده الله برحمته .

موكب المحمل قبل هذه المرة ، اذ كان المحمل وقتما كان يسافر برّاً يمر بينبع النخل ، التي تبعد عن ينبع البحر مسيرة ١٢ ساعة ولا يمرُّ بالثانية .

ينبع البحر :

هذه المدينة واقعة على ٢٤° و ٥ دقائق عرضاً شمالياً وعلى ٣٦° طولاً شرقياً ، وهي على الساحل الشرقي للبحر الاحمر ، غربي « المدينة » وهي فرضتها التجارية ، والمسافة بينهما مسيرة ٥٩ ساعة من طريق ينبع السلطاني ، ولها مرسى مبني بالحجارة ، ويسكنها « ٧٠٠٠ » نفس . وبها « ٨٠٠ » منزل ، و ٣٠٠ دكان ، وثلاثة جوامع وتسعة مساجد صغيرة — زوايا — ومكتب للتعليم ودار للحكومة ، واخرى للبريد ، ومخزن كبير ، وصهاريج يتجمع بها ماء المطر ، وفيها ينابيع ماء ، ولكنها قليلة الغناء وتجلب لها المياه من محل يسمى « المسيحلى » على مسيرة خمس ساعات « انظر شكوى اهل ينبع في الرحلة الثالثة » .

ولينبع محافظ ، ونائب عنه ، ومجلس ادارة برأسه المحافظ ، ويتألف منه ، ومن ستة اعضاء ، ثلاثة منتخبون ، والثلاثة الآخرون نائب المحافظ ، ومدير الأموال ، ورئيس التحريرات .

وفيها مجلس بلدي ، يتألف من رئيس وثلاثة اعضاء ، وبها شرذمة « اورطة » من الجنود .

وجوها رطب

ويحيط بها سور ، به باب محفور في الجهة الشمالية ، وهذا السور بناه دولة المشير عثمان باشا نوري ، الحاكم العادل الذي منع الاعراب من الدخول في هذه البلدة مسلحين ، بل يضعون سلاحهم في المخفر ثم يدخلون ويأخذونه بعد الخروج ، ومكتوب على السور الأبيات الآتية :

سلطاننا « عبد الحميد » له الهنا
أمنتْ بسعد رجاله الاوطانُ

لاسيما « عـــثمان » والينا الذي
بوجوده وادي « الحجاز » امانُ

قد شاد سورا حول (ينبع) لم يزل
أثراً له ، مــا دامت الازمــانُ

قلنا : وقد لاح المــؤرخ ناجزاً :
قــد حصن سور ينبع (عثمان) ؟

١٣٠٣

وكان قبل هذا السور سور آخر ، جدده عثمان أغا ، بأمر

دار السعادة في سنة ١١٢٦ هـ وقبل السورين سور آخر أمر بهدمه في سنة ١٠٧٩ هـ الشريف سعد صاحب مكة .

وقد رأيت في حجتي سنة ١٣٢٠ هـ قلعة خربة كتب على بابها الغربي في لوح خشب قديم : —

يا (سالما) بلغت مـا رمته
في دار عزٍّ انت شيّدته
ان زرته يا صاح أوْ جُزْتَهُ
فتاريخه اثر قد نلته ؟

١١٧٣

وفي سنة ٦١٧ بنى بها قلعة الشريف قتادة ، وقد اشتراها صاحب اليمن ، علي بن عمر بن رسول من الشريف ابي سعد الحسني ، وأمره بهدمها .

واكثر الحجاج يمرون بينبع ، ميمّمين المدينة للصلاة في المسجد النبوي ، ولزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم ، تبعا لذلك ، فينبغي العناية بها لأن نسبتها الى المدينة كنسبة جدة الى مكة[1] .

---

(١) مرآة الحرمين « ١٢/٢ — الى — ١٤ » .

المياه في ينبع :

الباخرة « ينبع » المعدة لتكرير المياه بينبع وصلت اليها متأخرة ، اذ لم تحضر اليها في ٨ المحرم سنة ١٣٢٢ هـ (٢٤مارس) وينبغي ان تكون هنالك من اول الحجة حتى اذا ما حضر الحجاج كانت على استعداد تام ، ثم ان الصهاريج (الفناطيس) التي كانت تخزن بها المياه قليلة ، فينبغي ان تزاد الى ٢٠ ، وان يعين لتوزيع المياه معاونان ، وثمانية محافظين ، وبدون ذلك لا يكون هناك عظيم جدوى من وجود الباخرة المكررة الماء ، لان قلة العمال والصهاريج توجب شدة التزاحم على المياه، فيضيع الضعيف بين الاقوياء ، وتتلوث المياه ، ولولا الضباط والعساكر الذين أنطنا بهم ملاحظة توزيع المياه لاشتد التزاحم والتضارب، ولم يبلغ بشخص غرضه منها .

وقد قدم الى اهالي ينبع في حجة سنة ١٣٢٠ استرحاماً اتقدم به الى اخوانهم المصريين ليمدوهم بآلة بخارية دائمة تكرر لهم المياه ، وتنقذهم من مخالب العطش المميت ، بل تنقذ الحجاج الذين يفدون الى بلادهم من كل حدب ، وانا نذكرها لك مع تغيير قليل في عباراتها ، دون معانيها ، ومراميها (وذَكِّرْ فإن الذِّكْرى تَنفَعُ المؤمنين) .

سعادة امير الحج المصري .

هل تسمحون لأهالي ينبع البحر ان يتقدموا اليكم باستعطاف لا يرمي الى غرض ما ، سوى لفت نظركم إلى ماضي بلدتنا من قلة المياه ، وغلو أثمانها الى درجة يكاد الفقير منها يموت عطشاً ، والغني يصبح فقيراً ، فان زق المياه الذي يعادل ربع قربة مصرية بلغ ثمنه في هذا الوقت ٣٦ قرشاً بعملة ينبع ، أو عشرة قروش مصرية ، وليست تقف قيمته عند هذا الحد ، بل ترتفع كلما شاءت اهواء ذوي البرك والصهاريج الذين اغنوا أنفسهم من اموال العالم ، بل من امتصاص دمائهم .

وان ينبع التي هي فرضة المدينة ، وممر الزوار اليها لا ينقصها إلا الماء الذي قلل من خطرها ، وغادرنا في اشنع حال .

وان كثيراً من الحجاج مروا بها في السنين المجدبة ، ونالهم من الشدة وغلو الاثمان ما نتحمله نحن الآن والحجاج ، وكنا ظننا ان يكونوا ألسنة لنا تبث شكوانا الى اخواننا المسلمين المنتشرين في اصقاع الارض ، علهم يرثون لحالنا ، ويساعد بعضهم بعضاً في تخفيف ويلاتنا ، ولكن للأسف ، كذبنا الظن ، وخاب منا الأمل .

ولقد توسمنا فيكم الخير يا سعادة الباشا - فرفعنا اليكم شكايتنا ، راجين قبولها ، مؤملين اذا رجعتم الى بلادكم تصحبكم

السلامة ان تنشروا ذلك بين مواطنيكم اهل الشفقة والخير ، وان تستنهضوا هممهم التي نرى فيها سعادتنا المرجوة وحالتنا المنشودة .

الله الله — يا سعادة الباشا — في أمر كهذا ، فيه فلاحنا وسعدنا ، (وانه لذكر لك ولقومك) .

انا لا نريد ان تجلب الى بلدتنا عين ماء ، فان نفقاتها كثيرة ، ولربما اعتدت عليها ايدي البدو الاثيمة ، وانما نريد آلة بخارية تخرج لنا من بحرنا الأجاج بحراً عذباً ، وتكون بين ظهرانينا.

وانا في الختام يرفع كبيرنا وصغيرنا اكُفّ الضراعة الى الحق ان يوفقكم لهذا العمل الخيري الذي تخدمون به الاسلام والمسلمين اجل خدمة ، وتكسبون به الأجر الجزيل ، ونرجو الله ان يديمكم كهفاً للشاكين وملجأ للباكين آمين .

ينبع البحر في ٢ المحرم ١٣٢١

وقد حادثت محافظ ينبع في تدبير امر المياه ، فأخبرني بأنه قد صدرت ارادة سنية بعمل آلة مكروة للمياه الملحة « الكندنسة » تصل الى ينبع بعد خمسة شهور واخبرت بذلك الولاية والامارة وقد مضى على ذلك سنتان ولم تصل « الكندنسة » وقد كررت الكتابة الرسمية والخصوصية في ذلك فلم تُجْدِ شيئاً . وان

الجنود الشاهانيــة ينفق عليهـــا في الشهر ثمن مياه ١٥٠٠٠ قرش عثماني .

ولقد كلمت صاحب العطوفة ناظر الداخلية في مسألة الميــاه فقرر ارسال الباخرة « ينبع » الى ثغر « ينبع » لتقيم بـــه نحو ثلاثة شهور في السنة ، تُمِدُّ فيها بالميـــاه المارّين من الحجاج ، واهالي ينبع جميعهم)[1].

ووصفها الشيخ حافظ وهبه فقال : (ينبع البحر : مبنية على سهل واقع بين البحر والجبل ، وهي مسورة من جهة الداخل بيوتها مبنية من الحجر الجيري ، سكانها نحو (٥٠٠٠) نسمة : والمسافة بينها وبين المدينـــة تقطع بالسيارة في ست ساعات ، ويجلب اليها الماء من مياه تسمى (المُسَيْحلي) تبعد عن البلدة نحو اربع ساعات . وقد انشأت الحكومة الحاليــة (كنداسا) لتقطير المياه من البحر محافظة على صحة الحجاج وتوفـــير وسائل الراحة لهم .

وفي ضواحيها كان الاجتماع التاريخي ١٩٤٥ م بين المرحوم الملك عبد العزيز وبين ملك مصر السابق فاروق .

---

(١) : مرآة الحرمين (٢/١١٩ — ١٢١) .

وقد اهملت ينبع في العشرين سنة الاخيرة ، فهجرها كثير من سكانها ، ولكن عناية الحكومة قد شملتها في السنوات الاخيرة ، فعبد الطريق الموصل للمدينة كما اعتزمت الحكومة انشاء ميناء عصري لتسهيل وصول السفن اليها ، وهكذا تعود الحياة اليها مرة اخرى .

ينبع النخيل :

هي واحة نخيل مياهها كثيرة ، وهي مقر عرب جهينة وحرب ، ويتبعها نحو عشرين قرية آهلة بالسكان [1] .

وتحدث عنها الاستاذ مصطفى الدباغ قائلا : —

(يَنبُع البَحر : بالفتح ثم السكون والباء الموحدة مضمومة تقع على بعد « ٩٠ » ميلا : « ١٤٤ كم » للجنوب من « املج » وهي المرفأ الطبيعي للمدينة المنورة وما جاورها . والميناء الثاني للحجاز . ومع انه صغير الا انه عميق ومَصُونٌ جداً ، وتقع امامها جزيرة صغيرة تسمى « جزيرة العباسي » . وليس في ينبع البحر ماء ، وانما تخزن فيها مياه الامطار واحياناً يؤتى

---

(١) : جزيرة العرب في القرن العشرين (ص ٢٠) الطبعة الرابعة سنة ١٩٦١ م .

اليها بالماء من موقع يسمى « المُسَيْحلي » على مسيرة نحو عشرة كيلومترات . وقد انشأت الحكومة فيها آلة لتقطير مياه البحر حفظاً للصحة العامة .

يحيط بالبلدة سور جدده العثمانيون في ولاية عثمان نوري باشا ، الذي ولي امر الحجاز عام ١٢٩٩ هـ : ١٨٨١ م لمنع دخول الاعراب بسلاحهم . يقدر عدد سكانها بنحو ١٠٠٠٠ نسمة بينما كان عددهم نحو ٣٠٠٠ نسمة في عام ١٩١٢ م. ويتبعها من البدو معظم قبائل جُهَيْنَة .

وينسب الى ينبع البحر : ابو عبدالله حرملة المدلجي الينبعي [١] « له صحبة ورواية عن النبي عليه السلام و « ابو دلف مسعر بن مهلهل الخزرجي الينبوعي » شاعر رحالة . وكان يكنى بالرحالة الحجازي ؛ قام برحلة ممتعة الى الشرق الاقصى

---

(١) : بل الى ينبع النّخل و كذا مسعر بن مهلهل الخزرجي وكتابه ليس مجلداً ضخماً بل رسالة وقد حققها المستشرق (و . مينورسكي Prof. O. Minorsky) وطبعت في مصر سنة ١٩٥٥ في (٣١ صفحة النص العربي والترجمة الانجليزية والدراسة في ١٣٦ صفحة) .

وكتب ما شاهده في تلك الديار في كتاب ضخم نقله المستشرقون الى مختلف اللغات الاوروبية . تجاوز التسعين من عمره ، توفي في نحو عام ٣٩٠ هـ : ١٠٠٠ م[١] .

ومن علماء ينبع « محمد بن ابي بكر بن عبد العزيز بن محمد ، ابو عبدالله عز الدين الكناني » ولد في ينبع عام ٧٤٩هـ : ١٣٤٨م ويعرف باسم « ابن جماعة »عالم باللغة والبيان والاصول وغيرها. تتلمذ لابن خلدون . توفي في القاهرة عام ٨١٩ هـ : ١٤١٦ م[٢] وعبد الرحمن بن عواد . مولده ووفاته في ينبع . تولى قضاءبلده وتوفي عام ١٢٩٣ هـ : ١٨٧٦ م . له مؤلفات .[٣]

ومن الشعراء الذين ينسبون إلى هذه البلدة الشاعر « محمد عبد الرحيم القفطي » الذى سجل الكثير في شعره عن ينبع .

والكيلومترات الآتية تبين المسافة بين ينبع والبحر وغيرها من المدن المجاورة :

الوجه : ٣٢٠ جدة : ٣٢٠ رابغ : ١٦٦ المدينة المنورة ٢٠٨

---

(١) : الاعلام للزركلي « ١٠٩/٨ » .
(٢) : الاعلام للزركلي « ٢٨٣/٦ » .
(٣) : الاعلام ايضاً : « ٩٤/٤ » .

وتقع في جوار ينبع البحر عدة أودية وقرى عديدة . ومن الاودية (وادي ينبع) و (وادي العيص) وغيرهما .

وتوجد رواسب عظيمة جداً من نوع جيد من الجبس ، على بعد بضعة اميال شمال ينبع البحر ، ولكنهـا لم تستثمر حتى الان للاستفادة منها) .

واشهر القرى المجاورة بلدة (ينبع النخل) وتقع على بعد نحو ٥٢ كم [١] .

ولاحد ابناء تلك البلدة الكريمة ، أبحاث حول تاريخها وهو الاستاذ عبد الكريم الخطيب ، قال في احدها :

(يخيل لكثير من الناس في بعض المدن ، حينما يقرأون كلمة او رسالة عن مدينة ينبع في صحفنا السيارة انها قرية من قرى مملكتنا المتسعة الارجاء ، والمترامية الاطراف ، وربما اخطأوا كل الخطأ في تصورهم هـذا ، فمدينة ينبع ليست بنكرة على من زارها ، او قرأ عنها ، فهي من اشهر المدن والموانيء السعودية واصلحهـا على ساحل البحر الاحمر ، وهي

---

(١) : الجزيرة العربية (١ / ٨٢ و ٨٣) الطبعة الاولى سنة ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م) .

مفتاح لمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم من غابر العصور والتاريخ لم يهمل ذلك ، وله ان يتحدث ، فلقد استقبل هذا الميناء الكبير في يوم من الايام ثلاثين باخرة ، وكانت لينبع تجارة خارجيـــة عظيمة في الصادر والوارد ، فكانت تصدر التمور والاسمـاك والحناء والبطيخ والسنامكي والصمغ والسمن والعسل والماشية والاصواف والجلود الى الاقطار المجاورة ... وتستورد بدلا عن هذه الصادرات بعض المواد الغذائية والكماليات ...

وهي مدينة متسعة الأرجاء ... تمتاز بهواء عليل .

ومن اجمل المناظر الطبيعية فيها (خليج رضوى) التاريخي ذو الشواطىء الرملية الجميلة ، والمناظر الشاعرية الخلابة .

وفي هذا العصر الذهبي الزاهر ... عصر الاصلاح ... اخذت نصيبها من بعض المرافق الحيوية .

فقد جلب اليها الماء العذب من ينبع النخل على مسافـة ستين كيلو متراً .

وعبدت طرقها بالاسفلت ما بين المدينة وجدة [1] .

---

(١) : ادب من رضوى (٨٩) .

ثلاث عقبات كانت تعترض التقدم العمراني لهذه المدينة

الاولى : اختلال الامن في هذه البلاد ، وفي غيرها من انحاء الجزيرة في العهود الماضية منذ العهد الأموي الى ان استولت الدولة السعودية على البلاد ، فلقد استشرى شرُّ البادية ، وتسلطوا – تحت قهر الفاقة والفقر – على الحجاج وغيرهم بالنهب والسلب ، فقطعوا الطرق ، ونشروا الفوضى ، وخاصة فيما بين مكة والمدينة ، وما بقرب هاتين المدينتين من الأماكن .

ولقد أراد الله لهذه الجزيرة خيراً فألقى بمقاليد الحكم فيها الى تلك الدولة ، ومنذ ان انتشر حكمها في الحجاز في سنة ١٣٤٣ هـ والأمن مستتب شامل ، والعدل منتشر ، وجميع اهل هذه المملكة يعيشون عيشة رضا واطمئنان ، وبهذا زالت العقبة القوية التي تعترض طريق الاصلاح والعمران ، فنالت مدينة (ينبع) قدراً من ذلك .

العقبة الثانية : عدم الماء العذب في هذه المدينة ، وهذا من الاسباب التي أثرت اكبر الاثر في تأخرها عمرانياً .

وفي آخر عهد الدولة التركية في حكم البلاد ، جلبت لمدينة (ينبع) آلة (كنداسة) لتقطير مياه البحر ، وقبلها كانت الحكومة المصرية – وهي تابعة للدولة التركية – ترسل باخرة ترسو في الميناء من قرب وقت قدوم الحجاج ، الى ما بعد سفرهم

تقوم بامدادهم بالماء العذب المقطر بواسطتها من ماء البحر .

ثم في عهد الدولة السعودية ، جلبت للمدينة آلة أخرى ، بعد ان اصبحت الأولى غير صالحة .

غير ان وسيلة تقطير الماء العذب من ماء البحر — مع ما تكلفه من تكاليف كبيرة — لا يمكن ان تفي بحاجة مدينة تتطلع الى الاتساع والتقدم العمراني ، ولا بُدَّ لها من توفير كميات كبيرة من المياه ، لا توفره آلات التقطير .

وهذا ما حمل الحكومة السعودية على القيام بعمل اصلاحي عظيم ، في سبيل تقدم هذه المدينة ، ورفاهية أهلها ، وهو مَدُّ الماء العذب بالانابيب ، من ينبع النخل الى (ينبع البحر) وبهذه الوسيلة تزول العقبة الثانية .

العقبة الثالثة : عدم صلاح الميناء ارسوّ البواخر الكبيرة ، قريبة من البلدة .

حقاً كان الميناء صالحاً لترفأ فيه السفن الشراعية الصغيرة ، وقد أصلح اصلاحات عديدة على هذا الاساس ، اما البواخر الكبيرة فكانت ترسو بعيدة عن الميناء ، واذن فلا بُدَّ من واسطة نقل اليها ، هي الزوارق ، وكثيراً ما لاقى الحجاج من

جراء ذلك مشقات ، وتعباً شديداً[1] ،يضاف الى هذا احتياج الميناء الى توسيع ، وتعميق من جانب البحر ، وغير ذلك مما يتطلبه ميناء يعتبر هو الثاني في الحجاز .

وهذا هو العمل الاصلاحي الجديد الذي قامت به الدولة السعودية .

لقد تمّ اصلاح ميناء ينبع ، اصلاحاً كاملًا صرفت في سبيله عشرات الملايين من الريالات ، — وليس كثيراً ما يصرف في سبيل البناء والتعمير — وانتهى العمل فيه في منتصف العام الماضي (١٣٨٥ هـ) وجرى الاحتفال باتمام ذلك المشروع ، فاستبشر اهل تلك الناحية ، وغمرتهم موجة من التفاؤل ، وبدأ كثير منهم ممن اضطرتهم قسوة الحياة الى الانتقال من بلادهم — بدأوا يعودون اليها مؤملين بأنها ستبلغ من الناحية العمرانية ما يرجوه ويأمله كل انسان ذي غيرة وطنية ، يدرك اهمية هذه المدينة ، وكونها مفتاح البلدة الطيبة (المدينة) عاصمة الاسلام الاولى .

---

(١) : انظر وصف طرف من ذلك في كتاب (في منزل الوحي) للدكتور محمد حسين هيكل (صفحة ٦٥٣ و ٦٥٤) .

القِسم الثالث: انطباعاتٌ خاصّةٌ

في اول عام ١٣٥٤ هـ ، قدمت مدينة (ينبع) حيث عينت مدرساً في مدرستها الابتدائية ، وامضيت في هـــذه المدينة الكريمة قرابة ٤ سنوات ، الفتها واحببتها ، ووجدت في عشرة اهلها وصحبتهم ما حببهم الي ، وطبع نفسي بطابع جعلني اميل الى هذه المدينة ، واجد راحة نفسية حينما اتذكر تلك الفترة التي قضيتها فيها ولم أغادرها باختيار مني ، ولكني نقلت الى وظيفة اعلى من وظيفتي ، ورغم تفضيلي البقاء ارغمت عـــلى مغادرة هذه البلدة .

تتكون هذه المدينة من محلات ، كل محلة يطلق عليهـــا اسم خاص كغيرها من المدن ، ويحيط بها سور ، وتقع ابنية المدينة في الجهة المحاذية للبحر على امتداده .

وقد بني هذا السور في سنة ١٣٠٤ هـ فى عهد والي الحجاز من قبل الحكومة التركية عثمان نوري باشا ويوجد حجر رخامي يحوي تاريخ ذلك البناء واسم ذلك الوالي ، وكان ذلك الحجر مطروحاً فوق احدى عتبات مسجد الامارة مقلوباً على وجهه ولا ادري هل لا يزال باقياً ام كسر .

وفي الجهة الشمالية الشرقية من المدينة محلة تدعى (الجـــار) وفي جهتها باب يعرف بهذا الاسم ، والظاهر ان الاسم لصق به

لأن المتجهين الى ميناء (الجار) القديم كانوا يذهبون من تلك الجهة .

وفي المدينة ابنية من العهد التركي كان من بينها دار الامارة والميناء وما بقربها من الأبنية الحكومية ، ومنها المدرسة الذي كان بناؤها على الطراز الحديث نوعاً ما في ذلك العهد .

وخارج السور يوجد عدد من الصهاريج المبنية بالصخر والجص ، لجمع مياه المطر والانتفاع بها في خلال السنة اذ لا يوجد في تلك البلدة ماء عذب لشرب اهلها وانما يؤتى لهم بالماء من مكان بعيد يسمى المسيحلى ، فيما بينها وبين ينبع النخل .

وتقع مقبرة البلدة خارج السور في الناحية الغربية مجاورة لساحل البحر وكان فوق بعض قبورها قباب من اعظمها قبة السيد (زارع) وقد هدمت في سنة ١٣٤٣ هـ وبقيت انقاضها قائمة ، وكانت على درجة من الاحكام والقوة بحيث ان هدمها استلزم ضربها بقذائف من المدفع .

ومن المعروف عدم جواز البناء على القبور وان الشريعة الاسلامية تحرم ذلك .

أمير ينبع: كان امير المدينة وما يتبعها في سنة ١٣٥٤هـ هو حمود ابن ابراهيم شقيق الامير عبد العزيز ابن ابراهيم رحمهما الله ، امير المدينة ، وكان رجلاً فاضلاً شهما .

وكان له مأثرة خالدة ، هو سعيه في فتح مدرسة لتعليم ابناء البادية ، ولعلها اول مدرسة انشئت في ذلك العهد لهذه الغاية .

ثم خلفه في الامارة الامير حمد ابن عبد العزيز ابن عيسى من سراة اهل شقراء في نجد ، وكان فاضلاً وقد توفي رحمه الله .

سكان المدينة : واغلب سكان المدينة من الاسر العربية التي انتقلت من صعيد مصر واستوطنت هذه المدينة .

ومن اشهر تلك الاسر : ال زارع ، ويتولى كثير من رجال هذه الاسرة مختلف الوظائف الحكومية ، فمنهم رئيس كتاب الامارة ، ومنهم رئيس محاسبة البلدية ، ومنهـم موظفون في المالية والمدرسة وكان منهم مديرها ومن تلك الاسرة من يتولى وظائف اخرى مرموقة خارج هذه المدينة في وظائف الدولة الاخرى ، في الرياض ، وفي جدة ، وفي المنطقة الشرقية .

ومن الاسر الكريمة اسرة السادة (آل سُبيه) وكان منهم رئيس التجار السيد مصطفى سبيه وقد توفي الى رحمة الله .

ومن الاسر الكريمة ايضاً اسرة آل الخطيب وكان منهم في ذلك العهد الشيخ مصطفى الخطيب (قائمقام البلدة) .

ومن سراة المدينة الشيخ محمد حامد ابن جبر وكان رجـــلاً شهما ذا مقـــام مرموق ، وله ابناء ساروا على طريقته هم عبد الرحمن وعبد الحميد وعبدالله .

ومن الاسر الكريمة اسرة آل مُقَدّم ، وآل شاهين ، وآل الطحلاوي ، والسادة ، وآل النقادي ، وآل خلاّف ،وآل ظليمي وهناك اسر اخرى فاضلة لا تحضرني اسماؤها .

وجل هذه الأسر من اهل مدينة ينبع الطارئين عليها .

اما الاسر الأُخرى التي هي من اهـل البلاد القدمـاء من الاشراف ومن قبيلة جهينة ، فقد انتقلوا من ينبع النخل الذي هو موطنهم الاصلي واستقروا في المدينة بعد ان اتسعت ونمت في العهد التركي وما بعده من العهود .

واستميح القارىء عذراً لعدم اتساع المجال لـذكر اشهر هذه الاسر في هذا الموجز .

التعليم في المدينة : كان في مدينة ينبع سنة ١٣٥٤هـ مدرستان : مدرسة ابتدائية تضم قرابة مئتي تلميذ .

ومدرسة مخصصة لابناء البادية تقوم الحكومة بالانفاق على

طلبتها وايوائهم ، وتعليمهم قد خصص لهم مكان يسكنون ويتعلمون فيه .

وكان طلاب هذه المدرسة يؤتى بهم من ابناء البادية ، وكثيراً ما كانوا يهربون من المدرسة لعدم الف ابناء البادية للاستقرار في المدن ، ولكن الامير حمودا رحمه الله كان يولي هـذه المدرسة الكثير من عنايته ، وكان يستعمل الصرامة في قسر بعضهم على البقاء في هذه المدرسة ، وارجاعه اليها اذا هرب منهـا على حد قول الشاعر :

فقسا ليزدجروا ، ومن يك راحما
فليقسُ أحياناً على من يرحم

واقد افادت هـذه القسوة فكان من هذه المدرسة النواة الطيبة التي رغبت ابناء البادية هناك في التعلم ، واوجدت منهم شباباً تقدم الى التعلم في عهد مُبكر ، واصبح الآن يتولى اعمالا حكومية نافعة . منهم عيد بن سليمان ، تولى إدارة مدرسة ينبع ، واخوه عودة بن سليمان ، أول من تولى ادارة مدرسة الجمعة ، في نجد ، وعائش بن حسين ، اصبح مفتشاً في وزارة المالية وغيرهم من شباب (جهينة) النجباء .

ومما يؤسف له ان المدرسة بعد نقل الامير حمود من امارة ينبع بدأ امرها يضعف حتى زالت وهكذا كل عمل نافع يفقد

من له أثر في ايجاده ، لا يلبث ان يتلاشى، مهما كان نافعاً .

اما المدرسة الابتدائية فقد انشئت في عهد الحكومة التركية ثم استمرت الى العهد الحاضر .

وكان من اول من تولى ادارتها عالم فاضل من اهل الشام ومن خريجي الازهر يدعى الشيخ راغب القباني ، ولكن عهد ادارته لم يطل ، وكان عالماً اكثر منه مربياً .

وقد اصيب اثناء وجوده هناك بحادثة اثرت في نفسيته تأثيراً كبيراً . ذلك انه كان متزوجاً بزوجة من اهل تلك البلدة ، وكان يحبها ، وصادف ان كان يلقي وعظاً في المسجد بعد العصر على العامة فتكلم بكلام نقل الى القاضي ، وهو المرحوم الشيخ سليمان الصحيمي .

فلما دعاه القاضي وسأله عن ذلك الكلام انكر ، وعلق طلاق زوجته بثبوت نسبة ذلك الكلام اليه ، فشهد شهود على انه تكلم به ، ففرق القاضي بينه وبين زوجته فأصيب بنوع من البلبلة الفكرية ، وكانت الحادثة جرت عليه قبل تعيينه في ادارة هذه المدرسة اذ كان مديراً لمدرسة (الوجه) ثم نقل الى مدرسة (ينبع) وبقي متأثراً بما حدث له .

ولقد ظهرت آثار ذلك التأثر في دفاتر المدرسة وسجلاتها ،

فقد كان يسجل في دفتر المكاتبات الرسمية كتب الاستعطاف التي يوجهها الى والد زوجته ، وكان يبدأها بجملة : (حضرة صاحب الجلالة الوالد خليل علام) وهـــو والد الزوجة . وفي اوراق اخرى بقيت في المدرسة ، وقد كان مدير المعارف في ذلك العهد المرحوم الشيخ محمد امين فودة فكان الشيخ راغب يكتب اليه بعض الكتابات التي يجد فيها الشيخ امين ما لا يناسب فكان يقسو عليه في الجواب ، وما كان يعرف ما جرى للشيخ .

ثم نقل الشيخ راغب رحمه الله الى ادارة اول مدرسة انشئت في الاحساء وعين مكانه في ادارة مدينة ينبع الاستاذ احمد ابو بكر زارع من اسرة آل زارع .

ثم عين بعده الاستاذ الشيخ محمد علي النحاس .

والشيخ النحاس رحمه الله من اول بعثة مصرية وفدت على هذه البلاد في عهد ادارة الشيخ حافظ وهبه للمعارف ، ثم نقـل الشيخ النحاس الى الاحساء واسندت ادارة تلك المدرسة إليّ .

وكان من بين مدرسيها عالم فاضل هو الشيخ عبدالغني مشرف من اهل المدينة المنورة ، وقد استوطن ينبع مدة من الزمن ، ثم استقال من التعليم واسندت اليـــه وظيفة القضاء في بلدة ضبا واخيراً استقال وعاد الى المدينة .

وكان الشيخ عبد الغني مشرف من خيرة الرجال الذين عرفتهم وكسبت صداقتهم ، في تلك المدينة ، ومع ان دراسته كانت دينية الا ان اطلاعه كان واسعاً ، وكان ذا رغبة قوية في مطالعة اي كتاب ، في اي علم من العلوم ، ولهذا فكثير ما كنا نقضي امسيات الايام خارج المدينة ومعنا ما نحصل عليه من الكتب ، التي وصلت الينا حديثة ، وعندما نقرأ خبر نشر كتاب نسارع الى طلبه من مصر ، وكانت المواصلات بين ينبع وبين مصر منتظمة وفي كل اسبوع ، وقد اعتدنا ان نخرج بعد صلاة العصر ويكون معنا في الغالب رجل ينبعي كريم يدعى محمد لعبيسي كان عضواً في المجلس البلدي . نخرج خارج البلدة نجلس في ظل احد الصهاريج نطالع ونقرأ ، ونبحث مسائل ادبية حتى تغرب الشمس ، فنصلي هناك ثم يعود كل واحد منا الى حيث يمضي ليلته .

ومن اساتذة المدرسة في ذلك العهد استاذ يدعى السيد رضوان محمد رابح ، من اهل بلدة (الزبير) وكان رحمه الله ان كان ميتاً ، وذكره الله بالخير ان كان حياً ، ذا شخصية لطيفة ، فهو يعرف كل شيء ، ويجيد كل علم ، ويتكلم الانكليزية ويدرّسها ،ويجيد العربية ويكتب بها هكذا يرى نفسه ، ويشاهد

المرء بين كتبه كثيراً من القواميس الافرنجية والكتب العربية الحديثة بجوار (مجربات الدَّيرَبِيّ)و(تذكرة داوود الانطاكي) وامثالهما من الكتب الخرافية ويسمع من آرائه عن النظريات الحديثة ما يدهش ، ومن الاعتقادات الخرافية ما لا يصدقه عقل . وكان طرازاً غريباً في حياته البيتية .

من ذكريات تلك المدرسة : اسند الي تدريس المحفوظات ،فكان اول درس قمت به امام طلاب السنة السادسة شرح ابيات من قصيدة ابي العلاء المعري المعروفة :

الا في سبيل المجد ما انا فاعل !

عفاف ، واقدامٌ ،وحزم ، ونائلُ

وكنت قد راجعت شرح بعض مفرداتها ومنها البيت التالي :

يهم الليالي بعض ما انا مضمر

ويثقل رَضْوى دون ما انا حامل

فكان ما قلت في اول يوم دخلت المدرسة ، وفي اول درس القيته : رضوى جبل قريب من المدينة ، سهل ، ترقاه الابل ، واهلي رجعت في ذلك الى احد شروح مقامات الحريري ،فما كان من الطلاب عندما سمعوا هذا الكلام مني الا ان قالوا بصوت واحد : لا يا استاذ ! ها هو رضوى امامك ـ وكانت النافذة

مفتوحة - وليس قريباً من المدينة ، ولا تستطيع الابل ان ترقى اعلاه .

سررت من هذا التصحيح ، وشكرت الطلاب ، وبينت لهم ان اكثر الذين يحددون المواضع في بلاد العرب كانوا يعتمدون على النقل ، وما كانوا يكتبون عن مشاهدة فجاءت كتاباتهم ناقصة خاطئة ، وحمدت لتلاميذي موقفهم .

رب ضارة نافعة : لا ازال اذكر لهذه المدينة الكريمة يداعلي لن انساها وان لم يكن لها الاثر المباشر فيها ،إلا انني ارى الفضل يرجع اليها ، ذلك انني مكثت اول ما قدمت اليها وقتاً قصيراً في ضيافة اميرها ، ثم رأيت بعد ان احتاج الامير الجديد إلى المكان الذي كنت اسكنه وهو تابع للامارة ، رأيت ان اسكن في المدرسة وان اقوم بشؤوني الخاصة من حيث المعيشة ومكثت على ذلك فترة من الزمن ، الا انني فوجئت بتأخر صرف الراتب الشهري ، لا لي وحدي ، بل لجميع موظفي الدولة وبقيت سبعة شهور اضطررت بعدها الى ان ابيع بعض كتبي . والكتاب الذي رأيته مرغوباً هو « معجم البلدان » لياقوت الحموي وقد كنت نقدت فيه ١٥٠ ريالا الا ان الراغب بشرائه لم يدفع لي سوى ٦٠ ريالا ، وتحت تأثير الحاجة قبلت البيع ،

ولكنني رجوت ان يبقيه عندي شهراً ، وفي خلال ذلك الشهر قمت بنقل ما يتعلق بتعريف امكنة الجزيرة ومواضعها ، وكنت امضي كل وقت فراغي في النقل خوفاً من أن ينتهي الشهر قبل انتهاء ما اريد نقله .

لقد اصبح لدى بعد هذا العمل ميل قوي ورغبة شديدة في تعرف اماكن بلادنا ، بل اتجهت اتجاهاً تاماً الى هذه الناحية فيما بعد ، واصبحت اجد في ذلك متعة أية متعة . وإذن فانني قد تلقيت في هذه البلدة الطيبة درساً نافعاً مفيداً في توجيهي الى هذه الوجهة . ومن يدري فقد تكون لي وجهة اخرى او لم يجر لي ما جرى ؟!

حقاً انني قد عرفت رجالا في هذه المدينة على جانب كبير من الكرم والوفاء ، ولطف الخلال ، الا ان من عادتي الانقباض والاستغناء ما اغناني الله ، وعلى ذكر هؤلاء الذين عرفتهم يحسن ان اسرد اسماء رجال اجتمعت بهم في هذه المدينة ، او عرفتهم ولن اذكر كل ما يجب ان يذكر عنهم ولا كل من ينبغي ذكرهم ولكنني اكتفي بالاشارة ، خوفاً من التطويل .

رجال عرفتهم او اجتمعت بهم :

ومن عرفتهم في هذه البلدة الكريمة ، رجل كريم ، سمح الخلق ، مرح

النفس فاضل على جانب كبير من اليسار، هو الشيخ ابراهيم ابن مسفر آل بشر ، من بلدة (الافلاج) وقد قدم الى ينبع بعد استيلاء الدولة السعودية على الحجاز بزمن قصير ، فتولى امامة جامع الامارة واستوطن في ينبع فاصبح يَنْبُعياً .

جاء وقت الصيف فدعاني لقضائه في ينبع النخل وفي بلدة سويقة)[1] حيث يملك فيها بستاناً جميلاً .

لقد استجبت لدعوته الكريمة ، فامضيت صيفاً جميلاً هناك . وكانت البلاد في ذلك العهد على جانب كبير من الازدهار ، فكانت عيون ينبع ذات مياه قويّة ، وكانت الحدائق والبساتين الجميلة عندما يراها الانسان تخللها الانهار الجارية يجد غاية الانشراح والسرور مضافاً الى ذلك ما يتصف به اهل تلك البلاد من الكرم .

---

(١) : تقدمت الاشارة الى (سُوَيْقَة) هذه مراراً . وقد انجبت عدداً كبيراً من رجال العلم والسياسة والشجاعة ، من اشهرهم عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي ابي طالب (رحمهم الله) وكان من العلماء والشعراء ، روى عنه الامام مالك بن أنس ، وترجمه صاحب الاغاني (٢٠٣/١٨) طبعه الساسي ، ولد سنة ١٧٠ وتوفي في سجن المنصور في الهاشمية في الكوفة سنة ١٤٥ـــ ومن شعره :

تابع حاشية ١٣٧

ان عيني تعودت كحل هند
جمعتْ كفُّها مـع الرفق لينا

ومنه :

يا هنـد إنـك لو علمـ
ـت بعاذلين ، تتابعـا
قالا ، فلم اسمـع لما
قالا ، وقُلْتُ : بل اسْمَعَا :
هنـدٌ أحبُّ إليّ من
مـالي ، وروحي ، فارْجعا
ولقد عصيتُ عـواذلي
وأطعْتُ قلباً موجعـا

وكان واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد – شيخا المعتزلة – يأتيان اليه في بلدته (سويقة) يتلقيان عنه العلم . وعبدالله هذا انجب ابناء كثيرين ، احدثوا أثراً كبيراً في العالم الاسلامي منهم :

١ – محمد الذي خرج على الخلافة العباسية في عهد الخليفة المنصور ، فاستولى على المدينة ، ثم قتل في شهر رمضان فيها سنة ١٤٥ هـ – ويعرف محمد هذا بـ (النفس الزكية) .

تابع حاشية ١٣٨

٢ ــ ابراهيم : ثار في عهد المنصور ايضاً ، واستولى على البصرة ، ثم قتـــل في شهر ذي القعدة سنة ١٤٥ ــ ايضاً عن ٤٨ عاماً ــ

وابراهيم هذا هو جد الاشراف اهل (ينبع) وقد شمـل اسمه قسماً كبيراً من قبيلة جهينة ، لاختلاط الاشراف اولئك بهم ، ومحالفتهم ، بل طغى هـذا الاسم حتى كان يطلق في القرن العاشر على قبيلة جهينة بأسرها .

٣ - يحيى وقد خرج في عهد الرشيد في (الديلم) فالقي القبض عليه ، ومات في السجن .

٤ ــ سليمان : قتل بفـــخ ، (وادي الزاهر) بمكة ، في عهد الهادي .

٥ ــ ادريس : هرب إلى المغـرب ، وكَوَّن هنـاك دولة الأدارسة المعروفة .

٦ - موسى : حبسه المنصور ، ثم خلى سبيله ، وهو جـد (بني الأخيضر) الذي كونوا لهم دولة في (اليمامة) في منتصف القرن الثالث الهجري ـ وبالاجمال : فان تاريـخ بلدة سويقـة حافل بالمـآسي ، والحوادث ، مما لا تتسع الذكره هــذه الصفحات القليلة .

وكنت امضي بياض النهار بين الحدائق ، فقد هيأ لي مضيفي الكريم منزلا في بستانه بين النخيل واشجار الليمون ، وعلى جانب النهر ، فعندما اتناول طعام الافطار ، اقوم بجولة بين النخيل ، وفي بعض الاودية القريبة منها ، وفوق التلال المرتفعة ، وعندما انتهي من رياضتي اعود الى مكاني في البستان ، في ظلال شجرة كبيرة من اشجار الليمون ، ويحيط بالبستان اشجار الحشاء التي تنبعث روائح « الفاغية » منها تعطر الجو بأريجها ، فأمضي بياض النهار حتى تنكسر حرارة الشمس داخل البستان ، ومعي مجموعة من الكتب التي ارغب مطالعتها ، وقد علقت في احد الغصون من شجرة الليمون (شنًا) قربة لتبريد الماء ، وكنت اجمع من الليمون كميات كبيرة ، واعصرها في الماء ، وكان مضيفي يغدق علي من كرمه ، ومما يجود به بستانه من صنوف الفواكه والخضر . وعندما احس بحرارة الجو انزل في النهر وامضي فيه وقتاً ممتعاً .

لقد امضيتها أياماً من اجمل ايام العمر ، واعمقها بالذكريات الطيبة في نفسي ، كل وقت الصيف .

الشيخ محمد بن جبر : ومن سراة ينبع الذين عرفتهم الشيخ محمد ابن جبر وكان على جانب كبير من الثراء ، ويملك في قرية

(المبارك) بستاناً كبيرا ، وكان كثيراً ما يدعوني لضيافته ، وكان موضع بستانه في المبارك في متسع الوادي ويشاهد المرء من قرب ساحلَ البحر على امتداد النظر وكثيراً مـا كنت وانا اقوم بجولة في تلك الناحية اتذكر قول الشاعر الينبعي ، الذي كان كثيراً ما يثني على بلدته ينبع .

روى البكري في معجم مستعجم ان العباس بن الحسن كان يكثر صفة ينبع للخليفة الرشيد ، فقال له يومـاً : قرب لي صفتها . فقال : —

يا واديَ القَصْرِ ، نعمَ القصرُ والوادي
من منزل حاضِرٍ ، إن شئتَ أو بادي
تُلْفى (قراقيرُهُ) بالعَقْرِ واقفـةً
و (الضبُّ) و (النون) والملاّحُ والحادي

القَراقير : جمع قرقور وهي السفينة العظيمة — والعَقْر هنا وسط المحل — : اي ان السفن ترفأ على الشاطيء ليست بعيدةعن البلد . والنون : الحوت . والملاح : ربان السفينة . والحادي حادي الابل . ولقد صدق هذا الشاعر فانت في ينبع النخل ان شئت كنت حضرياً وان شئت كنت بدويـاً ، فتجد محاسن البداوة والحضارة مجتمعة هناك .

ولقد زرت الشيخ ابن جبر رحمه الله في آخر حياته عندما ضعفت الاحوال في ينبع فانتقل الى مصر واستوطنها ، وان انس لا انسى آخر زيارة لي اياه وهو يودعني ويبكي عندما ذكرت له احدى المرات التي اكرمني فيها فدعاني الى المبارك ،وتذكرنا تلك السويعات الجميلة .

رجال آخرون : وممن عرفتهم في ينبع وانا لا اريـــد الاستقصاء والحصر ولكن مجرد الذكر (السيد مصطفى سُبَيْه) وكان رئيس التجار وكان على جانب عظيم من سلامـة النفس ، ولطف الخلق ، والشيخ مصطفى الخطيب وكان يتولى وظيفة (قائمقام) في ينبع .

والشيخ محمد بن جبارة احد كبار مشايخ جهينـــة والشيخ عبد الكريم بن بُدَيْوِي من (ذوي هِجَار) امراء ينبع منذ العهد القديم ، من الاشراف .

والشيخ سالم شاهين وكنت عندما اجتمع بـــه أذكر قول الشاعر : —

انا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الذي تعرفونه

خَشَاشٌ كرأسِ الحيَّةِ المُتَوَقِّدِ

والشيخ سالم رحمه الله وان كان حضريّاً الا انه يتصف بصفات

رجال البداوة الكريمة ، وكان كثير الاسفار ، عليما بمواضع تلك البلاد ، يتصف بالهدوء والرزانة ، واذا تحدث يتحدث بصمت ووقار ، حتى لا يكاد يُستمع .

ولقد حدثني عن اماكن اثرية تقع فيما بين (ينبع) وبين (العيينص) .

واخبرني ان هناك امكنة اثرية .

منها (قصر البنت) وهو قصر مبني بالصخر ، وفوق بعض احجاره نقوش ، وفي احد تلك الاحجار آثار كفٍ ، يروى العامة عن هذا القصر خرافة قد يكون لها اصل من الناحية التاريخية ، يقولون : سمي قصر « البنت » لان فتاة كانت تسكن فيه في العصور الجاهلية ، وكانت تلك الفتاة تعيش وحيدة ، وكثيراً ما كانت تأنس بالقمر عندما يطل عليها من المشرق ، فتعبر عن جماله بكلمات توجهها اليه ، تصفه فيها وتناجيه ، وكان لها عدوٌ وهي فتاة من لداتها ، فأرادت ان توقع بها مكروهاً ، فقالت لأخيها : ان اختك عاشق ، وعشيقها يأتي اليها ليلاً ، وعندما يطلع القمر ، واذا اردت التأكد من قولي فاذهب الى قصرها عند طلوع القمر ، واستمع اليها ، فما كان من أخيها ، الا ان صدق هذا القول ، واتى اثناء الليل ، فلما انتشر ضوء القمر

سمع اخته وهي تناجي القمر كعادتها ، فدخل القصر مسرعاً ، وضرب اخته برمحه ضربة اردتها صريعة ، فوضعت يدهـا على مكان الطعنة ثم حملتها وضربت بهـا الجدار ، وهي تتشحط بدمائها ، فبقي اثر الكف في الجدار ، لا يزال بارزاً على مـا يقولون . وقد يكون اثر نقش او صورة قديمة زالت معالمها ، ولم يبق سوى هذا الاثر .

وعلى ذكر الاثار في (ينبع) يشاهد المرء عندما يقبل عـلى ينبع النخل جبلاً صغيراً مستديراً فوقـه صخرة كبيرة يسمى هذا الجبل (لؤلؤة)ويعتقد اهل تلك البلاد بأنه من آثار اليهود. وفوق الجبل صخرة فيها نقوش ، وقـد صورها الاستاذ ياسين الجداوي [١] وهو من اهل ينبع وكان وكيلاً لشركـة البواخر الخديوية ، صورها وارسلها الى احد المختصين بدراسة الآثار في (جامعة القاهرة) وعند فحصها جاءه الجواب بان تلك النقوش اما ان تكون من آثار الاعراب (أو سمتهم ، جمع وَسْم) أو انها حروف لأبجدية لا تزال مجهولة ،

---

(١) : بيت الجدّاوي ، بيت معروف في القاهرة ومنهم الاستاذ ياسين هذا وهم من بلدة مصرية ، تدعى (جِدّيّـة) وليسوا منسوبين الى (جدة) .

وعلى ذكر الاستاذ ياسين لا يفوتني ان اشير الى ما يتصف به من ادب وسعة اطلاع و كرم نفس .

ومما يتصل بالآثار : يشاهد المرء كتابات عربيـة في صخور الجبال الواقعة قرب (سويقة) وغيرها من قرى (ينبع النخل) وقد قرأت اسماءً بالخط الكوفي فيها(الخزرجي)و(الانصاري) ويظهر ان اناساً من الخزرج انتقلوا الى (ينبع النخل) في صدر الاسلام، ويؤيد هـذا ان مـعر بن مهلهل صاحب الكتاب الذي وصف به بعض بلاد الشرق وهو خزرجي ينبعي .

ومن اهم آثار ينبع الاسلامية (مسجد العُشَيْرة) الذي يروي المؤرخون ان رسول الله (ص) صلى فيه حينما غزا (غزوة العُشَيرة) . وكان معروفاً الى القرن العاشر ، بعد ان درست (عشيرة) وبقي من عيونها (عين البركة) التي لا تزال معروفة وقد سبقت الاشارة اليـــه في مواضع (والمُكَرَّرُ يَحْلو) كما يقولون .

لا يخفى (ان ينبع النخل) كانت موطناً لعلي وبنيه رضي الله عنه ، ولعل هذا يفسر لنا مـــا ذكره المؤرخون من اثار نبوية وهي شعرات واشياء اخرى تنسب الى الرسول (ص) كانت لدى (بني ابراهيم) الاشراف من (ينبع) ويروى ابن إياس في بدائع الزهور (٤/٦٩) ان الصاحب بهاء الدين ابن

حنا احد المصريين المعروفين اشترى الآثار النبوية من بني ابراهيم اهل (ينبع) بستين الف درهم ، من الدراهم القديمة ، ثم نقلها إلى الديار المصرية ، وبنى لها مسجداً مطلاً على النيل).

ان من اجمل ما يشاهده المرء في تلك الجهات (ساحل رَضوى) ذلـــك الجبل المطل على (ينبع النخل) والشاطيء القريب منه ، شاطيء رملي ، (كأنَّ حصباءه دُرٌ وَمرجان) كما يقول الشاعر : وهو في متسع من الارض ، بحيث يصلح أن يكون في وقت الصيف من اجمل الشواطيء متى تناولته يد الاصلاح بالتنظيم .

هناك رجال كثيرون عرفتهم ، او اجتمعت بهم ، لا يتسع المقام لذكرهم ، ولكن لا انسى من بينهم الشيخ سعد ابن غنيم أحد مشايخ جهينة، انه يمثل العربي بكرمه ومظهره ، وكثيراً ما كنت عندما اراه اذكر عقيـل بن عُلَّفَة المُرّي ، احد رجـال العرب في صدر الاسلام واحد شعرائهم .

يروون عن عقيل بن علفة ان امير المدينة خطب منه احدى بناته قائلا : « زوجني بنتك » فأجابه : « أبكرة من ابلي تريد؟؟ فكرر عليه الكلام ، فأجابه بمثل جوابـــه الاول ، وفي المرة الثالثة قال له : « ألم تسمع ما قلت لك ؟ » فقال : « قد سمعت

واجبتك ان اردت بكرة من ابلي فهي لك ، اما بناتي فلست لهن بكفء » !! ويروون عنه انه دخل على احد الامراء وقد لبس خفين جديدين ، وهو يضرب الارض بهما ، مما استرعى انتباه الحاضرين عند الامير، فاتجهوا اليه ينظرونه فقال له الامير: « اتدري مِمّ يتعجب هؤلاء ؟! » قال : لا ! قال : « انهم يتعجبون منك من فظاظتك وغلظ طبعك » فقال : « لا : أيها الامير ، ولكنهم يتعجبون من زمان اصبحت فيه اميراً » !

ويروون عن عَقيل ايضاً انه دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، فقال له عمر : « اني لاظنك جِلْفاً جافياً ، لا تحسن من القرآن شيئاً » فقال : « بلى والله إني لاحسن الكثير » فقال: « اقرأ فقرأ (سورة الزلزلة) وقال : (فَمن يعمل مثقال ذَرّةٍ شراً يَرَهُ ، ومن يعمل مثقال ذَرّةٍ خيراً يَرَهُ) فقال له الخليفة : « لم يقل الله هكذا وانما بدأ بالخير » فقال عقيل :

خُذَا أنْفَ (هَرْشا [1]) أو قفَاها فإنّما
كِلا جانِبيْ (هَرْشا) لَهُنَّ طريقُ

---

(١) : هَرْشى : ثنية بقرب « رابغ » يَمُرُّ طريق مكة الى المدينة من جانبها ، وهي عقبة وقد سُهّلت ، وتُحرّف الآن فتسمى « حرشاً » بالحاء .

وروى عن الشيخ سعد بن غنيم انه تقدم للصلاة مع جماعة في احدى المرات وكان ابنه الشيخ صيّاح اقرأ منه ، فتقدم إماماً بالحاضرين ، ومنهم أبوه ، وفي اثناء الصلاة : تقدم الشيخ سعد، وجرّ ابنه الى الخلف قائلاً : والله لا تتقدمني وانا حيّ .

ويروون عنه انه يقول مشيراً الى بطنه : « في هذا البطن ٦٠ لحية على وضح النقا ، امـــا غيرهم فكثيرون » . مدللاً على شجاعته ، وكثرة من قتل ممن يستحق القتل من اعدائه .

وعلى ذكر الشيخ سعد اذكر ان من عادة الموظفين في يوم الجمعة الحضور بعد صلاتها الى مجلس الامير ، وفي احدى المرات كان من بين الحاضرين مدير الشرطة الشيخ (ابراهيم الرّشيد) ومن عادته ان يلفت الانظار بكثرة حديثه في مثل ذلك المجلس، إلا انه في تلك المرة بدا صامتاً كل الوقت ، فقال له الامير : « لماذا لم تتكلم يا ابراهيم وكأنك محزون ؟ » فـاجاب : نعم لقد توفي اليوم عظيم من عظماء العالم ، هو جورج الخامس ملك بريطانيا » فقال : الامير : ليذهب إلى (...) فرفـع ابراهيم رأسه ورأى الشيخ سعداً جالساً بجوار الامير ، فقال موجهاً الكلام للامير : «والشيخ سعد اين يذهب ؟» فاجاب : «الى الجنة ان شاء الله » فـــلم يتمالك مدير الشرطة ان تكلم بكلام لا يليق ذكره .

ومدير الشرطة هذا من الشخصيات التي لا تنسى لخفة روحه، وغرابة أطواره ، وهو نجديٌ عاش في العراق دهراً ثم انتقل الى مكة ، وصاهر (بيت الملطاني) وكان صديقاً لمدير الامن العام (مهدي المصلح) .

وممن عرفت في هذه البلدة الشيخ (عبد العزيز بن عبدالله الرُشَيْد) وكان في ذلك العهد (مأمور خفر السواحل) ويسكن في بيت صغير ، في طرف المدينة الشمالي على ساحل البحر ، بني حديثاً وكان هذا البيت مجمعاً لطائفة من موظفي تلك البلدة ، منهم الشيخ محمد العثمان الناجم مدير المالية ، والشيخ ابراهيم الرُشيد مدير الشرطة ، والشيخ محمد الصالح المُضَيَّان مدير المرفأ والشيخ محمد الصالح التركي المفتش في دائرة الرسوم (الجمارك) وكاتب هذه السطور .

كان الاجتماع يبدأ بعد صلاة العصر ويمتد الى الساعة الرابعة ليلاً ، وكان المجتمعون يمضون الوقت في بعض الالعاب المسلية اليدوية ، وفي كثير من الاحيان في صيد السمك ، والسمك في تلك الناحية موفور بكثرة ، والمكان جميل ، ولا يحيط به شيء من الابنية ، ولهذا فهو في وقت الصيف مما يجلب الراحة ويخفف شدة الحر ، وكان المجتمعون يتناوبون طبخ (العَشَاء) فآونة يعملونه من (الصيادية) واخرى من (المَعْدُوس) وثالثة من (فريك الدخن) وكان الشيخ محمد المضيان رحمه الله ورحم

الجميع فقد انتقلوا الى رحمة الله سوى الشيخ محمد الصالح التركي والشيخ عبد العزيز الرشيد امد الله في عمرهما . كان الشيخ محمد المضيان يجيد طبخ (المرقوق) وهي أكلة نجدية ، ولهذا أضاف الى اسمه احد الظرفاء هذا الاسم ، تمييزاً بينه وبين سميه ، وكان رحمه الله ذا نفس رضية ، وصدر رحب ، لم أره يوماً من الايام غاضباً مهما وجه اليه مما يغضب ، وكان الشيخ عبد العزيز الرشيد كريم النفس ، سمح الخلق ، لا اذكر يوما من الايام انني رأيت منه تأففاً امام زائر ، او احد من اخوانه ، على كثرة ترددهم عليه ، واجتماعهم في بيته .

كانت تلك الليالي التي امضيتها في (ينبع) من امتع ليالي العمر ، ومن ابقاها ذكراً بحيث اصبحت انظر الى تلك البلدة نظرة خاصة ، واحمل لها في نفسي من جميل الذكريات الشيء الكثير .

هناك فئتان عرفتهما حق المعرفة ، ووجدت من اثر معرفتهما في نفسي ما يستوجب ذكرهما إلا انني لا اجد في هذه اللمحات السريعة ما يتسع لذلك ، احدى هاتين الفئتين امير بلدة الشيخ (حمد بن عبد العزيز ابن عيسى) وابناؤه عبد العزيز ومحمد وعبدالله ، ورجال حاشيته .

والفئة الثانيه ابنائي وتلاميذي من طلاب المدرسة الذين

وجدت من محبتهم والفهم ما جعلني ادع الحديث عنهم لهـــم انفسهم ، يتحدثون عني وعن الايام التي قضيتها في مدرستهم وهي في الحقيقة سنين وليست اياماً ولكن كما يقول الشاعر : (وايام السرور قصار) . يتحدثون كما يشاؤون

وعلى ذكر المدرسة وتلاميذها ارى تسجيل ناحية خاصة بي، ذلك انني بعد ان اصبحت مديراً لتلك المدرسة ، كنت افضل تدريس الاطفال الصغار ، وفي الفصول الاولى ، لامرين: احدهما: ان كثيراً من المدرسين يفضلون التدريس في الفصول العليا ، ويرون اسناد التدريس اليهم في الفصول الاولى امراً يترفعون عنه ، معتقدين انه لا يتولى ذلك الامن هو قاصر في معلوماته وفي ادراكه ، ولكنني اخالفهم في ذلك فأرى ان الفصول الاولى هي التي يقوم عليها بناء التدريس ، وهي التي يجب ان يتولاها اكفأ الاساتذة واعمقهم ادراكاً لنفسية الطفل، واقدرهم على تحبيب الدراسة لنفوس الصبية الصغار ، بحيث يندفعون في مستقبل حياتهم الى التعلم ، ويحبون العلم ، ويألفون المدرسة ، وكنت كثيراً ما صبغت دروسي لهؤلاء بالصبغة التي تحببهم وترغبهم ، وتجعلهم يقبلون على تلقي دروسهم برغبة شديدة .

لا اطيل في هذا الموضوع ، فالافاضة فيه من اختصاص رجال التربية والتعليم ولكني اريد ان يكون من حديثي فيه مدخلاً

الى القول بانني اكتسبت صداقة عدد غير قليل من شباب تلك البلدة الكريمة اجهل كثيراً منهم .

وبالمناسبة فلم انس زملاء لي في التدريس نسيت اسماء كثير منهم وبقي في ذاكرتي منهم الاستاذ جميل معيلف والاستاذ سليمان خلاّف .

ولقد اكتسبت صداقة عدد غير قليل من موظفي تلك المدينة من اهلها ممن لا استطيع حصر اسمائهم .

الدكتور محمد حسين هيكل يزور ينبع : واثناء اقامتي في ينبع زارها الاستاذ محمد حسين هيكل باشا العالم المصري المعروف ومؤلف كتاب (حياة محمد) وكتاب (في منزل الوحي) وغيرهما من المؤلفات الكثيرة ، وقد زرته انا والاستاذ محمد علي النحاس رحمه الله وكان الشيخ النحاس اذ ذاك مديرا المدرسة وكنت معاوناً له ، وقد وجدناه على حالة نفسية من القلق ، لرغبته بسرعة العودة الى مصر ، فكان لا يرغب الاسترسال كثيراً في الحديث ، وقد اشار الى زيارته لهذه المدينة في كتابه في (منزل الوحي) ومما قال عن ذلك : (اصبحت بينبع مطمئناً سعيداً وهبطت الى غرفة الاستقبال ، فالقيت بها قوماً من اهل البلد ، تفضلوا بزيارتي ، فلما تبادلنا الحديث عجبت ان تكون لهجة احدهم ادنى الى المصرية ، وحسبت السبب في ذلك محاذاة ينبع

مصر ، لكن الرجل اسرع فذكر لي انه مصري المولد ، وان له بينبع بضع [1] سنوات احترف فيها مهنة التعليم ، وان به الى مصر هوى ، لولا ما يمسكه من لطف اهـــل البادية ، ومن شغفه بالاماكن المقدسة [2]) .

وقال ايضاً :

(وخرجت من الدار مع اصحابي لزيارة أمير ينبع ، فعلمت منه ان « زمزم » رست في الميناء وانها قيد النظر ، وشربنـــا القهوة النجدية والشاي ، واجتمرنا بذلك العود الذكي الرائحة ، والذائع الصيت اليوم في البيئات الرسمية بالحجاز ، وتناولنا حديث سفر زمزم ومرفأ ينبع ، ومـــا يجده المتنقل منه الى البواخر الكبيرة من مشقة ، اذ تنقله الزوارق الصغيرة من الشاطىء واليها في بحر مضطرب الموج ، في اكثر الاحايين ، وتابعنا الأحاديث في اتصال البلاد التي تتكلم العربية جميعاً ، وفي سهولة المواصلات بينها ، وفيما أدّى ذلك اليه من ارتباطها من قبـــل الوحدة الامبرطورية الاسلامية ، وأسفنا لجناية الدهر على هذه الروابط ولتفريط المسلمين في العمل على اعادتها . وانتهينـــا من ذلك الى حلو الاماني ، ولم يكن حديثنا في هذا كله ليتعمق في الامور ،

---

(١) : يعني الشيخ النحاس ، وكان له في الحجاز لا في ينبع .

(٢) : في منزل الوحي (٦٥١) .

أو يقصد الى شيء من الوقوف على اسرارها .

فينبع بلد صغير ، واهله واميره ، وحاشية الامير في اكثر عناية بشؤونهم المحليـة الخاصة بهم بشؤون التاريخ واطوار الحياة ، وهم كأعيان ريفنا المصري ، كرماً وترحيبا ، وحسن لُقْيا ، ولقد غادرتهم شاكر لطفهم ، شاكراً للامير ما ابدى من حرص على طمأنينتي حتى ابلغ الباخرة ، ذاكراً له ان مضيفي واهله قد بلغوا من هذا الحرص ما طوقوا به عنقي [1] وما جعل لهم عندي يداً لا تنسى

وانطلقنا في ميادين فسيحة من أرض ينبع ، نبتغي الشاطىء ، حيث ضربت (البعثة الطبية المصرية) خيامها ، فشربنا القهوة المصرية ، وقضينا من الوقت ما بقي الى الظهر ، وعدنا الى الدار ، فاقمنا بها ، فلما اقترب المساء اقبل علينا فيها اخوان من المصريين ، تحدثوا في سفرتنا ظهر غد . . .

واصبحت ، فأعددت متاعي للسفر ، وودعت مضيفي شاكراً ، وذهبت ومن صحبني الى « الجمرك » ، ثم اقلنا زورق صغير الى الزورق البخاري « السويس » لينقلنا الى « زمزم » [1] .)

---

(١) : منزل الوحي (٦٥٢ و ٦٥٣)

خاتمة :ـ

وبعد : فأراني اطلب الحديث عن نفسي إطالة قد لا تحمد ، فلأقف عند هذا الحدّ ، وان تكن الذكريات التي تزخر بهـــا النفس لم تنته ، لأقف ، وانا راغب في اطالة الحديث ، .وواجدٌ مجال القول ذا سعة .

فهل يشفع لي عند من لا يستسيغ الاطالة ، انني لم اذكر إلا" جزءاً يسيراً مما ينبغي ذكره من الاثر العميق الذي بقي في نفسي لهذه البلدة الكريمة ولأهلها ؟! ارجو ذلك .

ملحق :

بلاد جهينة ، ومنازلها القديمة

(بلاد ينبع ، من منازل جهينة ، وقد نشرت مجلة « العرب » [1] بحثاً عن هذه القبيلة ، تضمّن تحديداً لبعض منازلها وما بقرب منها ، وكثير من تلك المواضع ، إما تُعَدّ من بلاد ينبع ، او تَقرُب من هذه البلاد ، وهذا هو الباعث لالحاق البحث المتعلق بتحديد منازل تلك القبيلة بهذا الكتاب ، مع العلم ان كثير من المواضع المذكورة فيه لا تُعَدّ من بلاد ينبع ، وان كثيراً منها اصبحت ليست من منازل جهينة ، بل نزلتها قبائل اخرى كقبيلة « حَرْب » او « مُزينة » او « سُلَيْم » او غيرها) .

---

(١) : مجلة العرب (الجزء الثالث : رمضان ١٣٨٦ هـ) .

بلاد جهينة ، ومنازلها القديمة : —

ويحسن ايراد تعريف مفصل لمنازل جهينة وامكنتها القديمة ، مما نسبه المتقدمون اليها ، او مما هو داخل في منازلها .

ومما تجب ملاحظته ان كثيراً من تلك المواضع قد انتقلت الى غيرها من القبائل منذ عهد بعيد ، ومواضع اخرى تشارك جهينة فيها قبائل أخرى ، ومواضع ثالثة قد تكون نسبتها الى جهينة من قبيل الجوار ، ذلك أننا لو جارينا المتقدمين على تعريفهم لمنازل جهينة لاعتبرناها تحل من ساحل البحر من قرب ميناء (رابغ) الى (حقل)بجوار(العقبة) شمالا ،ومن الساحل غرباً الى المدينة شرقا ، بامتداد بلادها على ساحل البحر ، وليس من شكّ في ان جهينة تحل اكبر جزء من هذه البلاد ، ولكن هناك قبائل اخرى كانت تشاركها الاستيطان في كثير من هذه الجهات ، وسيأتي الحديث عنها :

● — آرَة : جبل عظيم بين مكة والمدينة وصفه عـرّام بن الاصبغ السلمي في رسالته وَصفاً دقيقا ، فقال : يقابل قُدسا ، من اشمخ ما يكون من الجبال ، أحمر ، تخرج من جوانبه عيون، على كل عين قرية ، فمنها الفرْع ، وام العيال ، والمضيق ،

والمحضة ، والوبرة ، والفغوة ، تكتنف آرة من جميع جوانبها، وفي كل هذه القرى نخيل وزروع – وهي من السقيا على ثلاث مراحل ، من عن يسارها مطلع الشمس ، وواديهـا يصبُّ في الأبواء ثم في ودَّان .

● – أبار وأبير : من اودية الاجرد ، يصبان في ينبع على ما ذكر السمهودي .

● – الاجرد : احد جبلي جهينـة المشهورين والثاني الاشعر وهو اكبر منه ، واخصب ، قال البكري في كتاب (معجم ما استعجم) وقوله اوسع وصف اطلعت عليه عن هذا الجبل :

(الاجْرَد : احد جبلي جهينة ، والثاني الاشعر ، واليهما تنسب اوديتهم ، والاجرد مما يلي بواط الجلسي ، وهما بواطان، فمن اودية الاجرد – التي تسيل في الجلس مَبْكَثَةُ وهي تلقاء وادي بُواط .

ويلي مبكثة : رشاد ، وهو يصب في اضم وكان اسمه غوى – فيما تزعم جهينة – فسماه رسول الله صلى الله عليـه وسلم رشاداً ، وهو لبني دينار ، اخوة الربعة .

ويلي رشادا الحاضرة ، وبها قبر عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف — وهي عين لهم .

ويصب على الحاضرة : البُلَى ، وفيه نخل ، وهو لمحمد بن ابراهيم اللهبي .

ثم يلي الحاضرة : تِبرِز ، وبه عيون صغار ، عين لعبدالله بن بن محمد بن عمران الطلحي يقال لها الأذْنِبَة ، وهي خير ماله ، والظُثْليل لمبارك التركي ، وعيون تتبدد في اسنان الجبال .

من اودية الاجرد التي تصب في الغور ، هَرَر وهي لبني جشم (او غنم) رهط من بني مالك ، وفيه يقول ابو ذؤيب .

أكانت كليلة اهل الهُرَر ؟

ومن مياه جهينة بالاجرد : بئر ابن سباع وهي بذات الحرى ، وبئر الحواتكة وهي بزقب الشُطّان الذي ذكره كثير فقال :

كأن اناسا لم يحلوا بتلعة
فيضحوا ومغناهم في الدار بلقع

مغاني ديار لا تزال كأنها
بأصمدة الشُطّان ريط مضلع

وهو بالمنصف بين عين بني هاشم التي بملل وبين عين اضم .

● – الأذْنبة : عَيْن من عيون الاجرد ، تقدم وصفها .

● – أذَيْنَةُ : وادٍ من أودية القَبَلِيَّة ويسمى تَيْتَد ، على ما نقل الزمخشري عن السيدُ عَلِيّ بن وهاس المكي ، وهو عليم بهذه المواضع .

● – أرَابِن – بضم الهمزة ثم راء مفتوحة بعدها الف فباء موحدة مكسورة ثم نون ، ضبطه ياقوت وعرفه بأنه اسم منزل على قفا مبرك ، ينحدر من جبل جهينة على مضيق الصفراء وانشد لكثير :

وذكرت عزة اذ تصاقب دارها
برُحَيِّبٍ فـأرابن فنخال

● – الأشْعَرُ : في كتاب (معجم مـا استعجم) وصف لجبل الاشعر ، فيه تفصيل لا يوجد في غـيره من معجمات الامكنة التي وصلت الينا ، ومما يؤسف له ان البكري لم يذكر مصدره ، ولعله نقله عن الهجري على ما يفهم من صفة ذلك الجبل التي نقلها السمهودي عنه في وفاء الوفاء ، ولكن هذا لا يقلل قيمة هذا الوصف كما اورد السمهودي في وفاء الوفاء [1] جزءاً منه ،

---

(١) وفاء الوفاء (ج) مادة الاشعر) .

عن المجري ومن ذلك ان الاشعر يحده من شقه اليماني وادي الروحاء، ويحده من شقه الشامي بواطان ،

قال البكري : –

الاشْعَرُ : احد جبلي جهينة ، سمي بذلك لكثرة شجره ، والجبل الثاني الاجرد ، واورد البكري حديثا نسبه الى النبي صلى الله عليه وسلم قال: « اذا وقعت الفتن فعليكم بجبلي جهينة» .

وبحذاء الاشعر من شقه اليماني ، وادي الروحاء ، ومن شقه الشامي بواطان ، الغوري ، والجلسي ، وهما جبلان متفرقا الرأسين اصلهما واحد ، وبينهما ثنيّة سلكها رسول الله (ص) في غزوة ذي العُشيرة من ينبع .

فأهل بواط الجلسي بنو دينار موالي بني كلب بن كثير ، وكان دينار طبيبا لعبد الملك بن مروان .

ومن اودية الاشعر : حورتان ، الشامية واليمانية ، وهما لبني كلب بن كثير ، وبني عوف بن ذهل – من جهينة .

وبحورة اليمانية واد يقال له ذو الهدى ، سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك ان شداد بن امية الذهلي قدم عليه بعسل اهداه له فقال : « من أين شرتَ هذا » ? فقال : من وادٍ يقال له ذو الضلالة . فقال : « بل ذو الهدى » .

وبها المخاضة ، وهي بقاع كانت لقوم من جهينة ثم صارت لعبد الرحمن بن محمد بن عُزير وهي التي يقول فيها ابن بشير الخارجي :

ألا ابلغا اهل « المخاضة » انني

مقيم بزورا ، آخرَ الدهر معتمر

وكانت وعرة ، وبها غَرَضٌ يستخرج منه الشب ، والغرَضُ شَقٌ في اعلى الجبل ، او في وسطه .

وكان عبد الملك قد اتخذ في خلافته بحورة الشامية منزلا يقال له ذو الحماط ، لان موضعه كان مُشجراً بالحماط .

وبحورة الشامية كان ينزل محمد بن جعفر الطالبي في بقاع بني دينار ، ايام كان يقاتل ابن المسيب .

والحورة الشعب بالوادي .

ومن اودية الحورة : واد ينزع في الفقارة ، سكانه بنو عبدالله بن الحصين الاسلميون والخارجيون رهط الخارجي الشاعر ، وهم من عدوان تزعم جهينة انهم حالفوهم في الجاهلية .

وبأسفل الحورة عين عبدالله بن الحسن التي تدعى سُوَيقَة ، ثم تنفذ بين السفح والمشاش ، وبها ذات الشُّصُب ، وبها المليحاء ،

وبأسفل المليحاء هضبة يقال لها الجياء لكثرة نحلها ، والجيـــاء موضع بيوت النحل ، وهي بين شويلة ، وبين الحورة ، وفيها نقب يقال له العويقل ، وفي العويقل يقول ابن اذينة :

ليت العويقل سدّته بجمتهـا
ذات الجياء ، عليه ردم ماجوج

فيستريح ذوو الحاجات من غلـَظٍ
ويسلكوا السهل ، تمشى كل منتوج

فأجابه الخارجي :

خلّوا الطريق اليه ان زائره
والساكنين به الشمّ الاباليجُ

ما زال منذ اذال الله موطئه
ومنـــذ أذّن ان البيت محجوجُ

يهدى له الوفد ، وفدالله ، مَطْرَبة (١)
كأنما شطب بالقِـدّ مَنسُوجُ

---

(١) المطربة الطريق الضيق في الجبل او الحرة .

وكيف يوثقه سداً وهم لهم
لبَّيْكَ ، لبيك ، تكبير ، وتجيج

ويلي حورة الشامية ينازعها من شقها الشامي : حُراض ، وبها بئر يقال لها بئر حُراض ، ولعمران بن عبدالله بن مطيع بفرع حراض قصر ، وهناك ايضا حُرَيض ، وهو لبني الربعة ، فيه ماء يسيح لا يفضي الى شيء ينتفع به :

ويلي حُريضا ظَليم ، وصدره لبني الحارث بطن من مرة من بني الربَعَة ، وبأسفل ظلم بئر ، يقال لها بئر عطيل الملَيْحي — ومليح من الربعة — وبفرع ظلم : الصهوة ، صدقة عبدالله بن عباس ، على زمزم ، يفتل رقيقها الحَزَم من الصهوة لزمزم ، ورقيقها متناسلون بها الى اليوم .

ويلي ظلما من شقه الشامي مليحتان : مُلَيْحَة الرمث ومُلَيْحة الحَرِيض ، لانها شعبا ضيقا يحرض الابل ، اي يقشر جلودها ، يسدّ بخشبة .

وهناك جبل سمّار الذي يقول فيه الشاعر : —

لئن ورد السِّمارَ لنَقتُلنه
فلا وأبيك [1] لا ارد السِّمارَا

وهناك ايضاً : عُوَيْسِجَةُ .

وبين ظَلِم والمُلَيْحتَين : الدَّحْلان ، دَحْلٌ ، ودَحْلٌ .
وعذَمَرُ : وهو جبل عظيم ، بين مليحة ، وصعيد ظَلِم .
وبطرف هذا الجبل الشامي ماء يقال له : الوشل ، وبطرفه الغربي : رَدْهَةُ عاصم .

ثم يلي المُلَيْحتَين : بُوَاطان المذكوران .

ومن اودية الاشعر : طاسا ، وهو يصب على الصفراء — وهي لبني عبد الجبار الكلبيين ، وهم يزعمون ان لهم دعوة من رسول الله صلى الله عليه وسلم في أموالهم .

ومن أوديته : عَبائِر ، وهو لبني عَنْم [2] من جُهَينَة

وفيه يقول الخارجي :

---

(١) لا يجوز القسم بغير الله وفي الحديث : « من حلف بغير الله فقد اشرك » .

(٢) لعله عَنَمَه ، وفي بعض النسخ جشم .

قلبلي دُلاني عباثر إنهـا
يَمُرُّ على قيس بن سعد طريقها

هدتنا لهـا مشبوبة يهتدي بها
يضيء ذرى ذات المظوم حريقها

يعنى قيس بن سعد بن زيد الانصاري وفي عباثر طريـق يفضي الى ينبع

ومن اودية الاشعر الغورية : عَمَلى ، تصبّ على ينبع وبهـا بئران يقال لهما بئرا الصريح ، واحدة لبني زيد بن خـالد الحراميين ، والاخرى للكلبيين .

وبأسفل عملى عيون لحسين بن علي بن حسين ، منها ذات الاسيل .

وبأسفل عملى البلدة ، والبُلَيند ، وبهما عينان لبني عبد الله بن عنبسة بن سعيد بن العاص .

وقد ذكر كثير البليد :

فأتبعتهم عينيَّ حتى تـلاحمت
عليها قنانٌ من «خفيْنن» جون

وقد حال من «حزم» «الحماتين» دونهم
واعرض من وادي «البُلَيد» شجون

وفاتتك ظعن الحي لمـا تقاذفت
ظهور بهـا من «يَنْبُع» وبطرن

● ــ أشمذان : قال نصر بن عبد الرحمن الاسكندري[1]: أشمذان، تثنية أشمذ، جبلان بين المدينة وخيبر ينزله جهينة وأشجع .

● ــ اضَمُ : هو مجتمع اودية المدينة، من اعظم أودية جزيرة العرب، يشق الحجاز حتى يفرغ في البحر، وقد حدده علماء ثلاثة من اهل هذه البلاد هم : الزبير بن بكار عالم الحجاز في القرن الثالث. والثاني: ابو علي هارون بن زكريا الهجري، من علماء القرن الثالث والرابع، وقد اقام في المدينة، والثالث: السيد علي بن وهّاس شيخ الزمخشري من علماء القرن السادس فقال الهجري :

---

(١) كتاب الامكنة والمياه والجبال (الورقة ١٨ نسخة المتحف البريطاني) ونقله عنه ياقوت .

سألت الخلصى : عبدالله بن محمد الجعفري عن ذي رولان فقال : هو واد من شرقي الحرّة ، يدفع في ضَفَوى ، ثم يدفع في الشعبة ، والشعبة في قناة ، وقناة من نواشع اضم ، وينهي إضم في الحوراء ، وكل مـــا اسميت غورٌ ، وتجتمع سيول المدينة كلها في الغابة ، ثم في إضم .

وقال – على ما نقله السمهودي عنـــه : سمي اضم لإيضام السيول به ، واجتماعها فيه .

ونقل السمهودي عن الزبير بن بكار اسماء الاودية التي تجتمع في اضم فقال : قال الزبير : –

ثم تمضي السيول اذا اجتمعت في اضم فتنحدر على عين ابي زياد والصورين في أدنى الغابة ، ثم تلتقي بوادي نعمى ووادي نعمان اسفل من عين ابي زياد ، ثم تنحدر ، ويلقاها وادي ملك بذي خُشُب ، وظلم ، والجُنَيْنَةُ ، ثم يلقاها وادي ذي أوان ودوافعه من الشرق، ويلقاها من الغرب بُواط والخرار ، ومن الشرق وادي أمّة ، ثم تمضي في وادي اضم حتى يلقاهـا وادي بُرْمة الذي يقال له ذو البيضة من الشّام ، ويلقاهـــا وادي تُرْعة من القبلة ، ثم يلتقي هو ووادي العيص من القبلة ،

ثم يلقاه دوافع واد يقال له حجر ، ووادي الجزْل الذي بـــه السُّقيا والرَّحْبَةُ في نخيل ذي المروة ، مغرباً .

ثم يلقاه وادي عَمُودان في اسفل ذي المروة ، ثم يلقاه واد يقال له سفيان حين يفضي الى البحر عند جبـــل يقال له أراك ، ثم يدفع في البحر من ثلاثة اودية اليعبوب والنتيجة وحقيب .

وقال السيد عليٌّ : إضَمُ : وادٍ جِلْواخٌ ، يَخْتَلِبُ نجْداً وتهامة ، وهو الوادي الذي فيه المدينـــة ، ويسمى من عند المدينة القناة، ومن اعلا منها عند السد يسمى الشظاة ، ومن عند الشظاة الىأسفل يسمى اضما الى البحر . وقال السمهودي بأنـــه (يسمى اليوم الضيقة) ، ولعله يقصد ما يلي المدينة منه .

وقد نزلت قبيلة جرهم وادي اضم بعد جلائها من مكة ، وفيه هلكت بالسيل،على ما يروي المتقدمون ويستشهدون بقول امية بن ابي الصلت :

وجُرهُمُ دَمَّنُـوا تهامـة في الدَّهْـ
ـر ، وسالَتْ بجمعهم إضَمُ

على ان البيت لا دليل فيه على هلاكهم بالسيل .

ولاضم ذكر في اخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ،

وكان الخلفاء والولاة يقطعون اعيان المدينة فيه إقطاعات ، ومنها : إقطاع المهديّ المغيرة بن خبيب بن ثابت الزبيري فيه عيناً يقال لها عين النيق .

وقول الهجري انه يصب في الحوراء ، فيه تجوّز ، فهو يصب شمالها فيما بينها وبين الوَجْه ، عند رأس يُدعى كركومة ، شمال جبل يدعى بهذا الاسم ، بقرب درجة الطول (٣٦/٣١) ودرجة العرض ٥٠ / ٢٥ – اي بمسافة تقرب من مائـــة كيل شمال موقع الحوراء .

ويجتمع في إضم كثير من الاودية التي تنحدر من السلسلة الجبلية التي يخترقهـا ، منها وادي الجزل ، ووادي العيص .

● – ألاب – كَسراب – نقل السمهودي عن الهجري انه من أودية الاشعر ، جبل جهينة .

● – أَمرَ : (انظر : ذا أمر) .

● – بَدر : وَعدَّ الكلبي فيما نقله عن البكري بَـدْراً من منازل جهينة ، وبَدْرٌ كان من المناهل المعروفة ، ترده القوافل

المتجهة من جنوب بلاد العرب من تهامة ، الى الشام وفيه حدثت الوقعة المشهورة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه ، وبين قريش فانتصر الاسلام منذ ذالك الحين : (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) . وقد اصبحت بدرٌ قرية غناء .

● – بِرَاقُ حَوْرَة : موضع من أودية الاشعر ، بناحية القبلية على ما نقل السمهودي .

● – بُرْقة روارة : رواوة من جبال جهينة – على ما ذكر صاحب معجم البلدان واضيفت اليه البُرقة وهي ارض ذات رمل وحجارة ، يخالف لونها لون الجبل وانشد ياقوت لكثيرٌ :

وغيّر آيات ٍ ببُرْق رواوة
تنائي الليالي ، والمدى المتطاولُ

● – البُغَيْبِغَة : من أشهر عيون ينبع ، واقدمها وهي من عيون علي (ض) ولها ذكر كثير في كتب التاريخ ومعجمات الامكنة .

وقد درست العين واصبح اسمها يطلق على مكانٍ يقع بين قريتي المبارك والمزرعة .

● – البَلْدَة : من مواضع جبل الاشعر ، تقدم ذكرها فيه .

● – بَلْكَثَة : ورد ذكرها في اقطاع رسول الله صلى الله

عليه وسلم عوسجة بن حرملة الجهني . وهي واحدة من بلاكث وبلاكث على ما جاء في معجم البلدان نقــلا عن يعقوب بن السكّيت قارة عظيمة ، فوق ذي المروة ، بينه وبين ذي خشب، ببطن إضم .

البَلْيَاء : من اودية القبلية .

● - البُلَيْد : من مواضع الاشعر ، تقدم ذكره ، وقــال السمهودي : انه من اودية الاشعر بأسفل نخلي ، قرب الفقرة التي تحمل منها الحنطة الرياضية المدينة

● - البُلي : من اودية الاجرد - على مــا ذكر البكري - وقد تقدم .

● - بُواط : هما بواطان : بواط الجَلْسي ، وبواط الغوري جبلان من أشهر جبال جهينة ، ومنهما يجري واد يسمى بهـذا الاسم ، وهو من اودية القبلية على ما نقل ياقوت عن السيّد علي.

وقد تقدم وصف الجبلين في الكلام على الاشعر .

● - بُوانَة : قال السيد عليّ : هضبة وراء (ينبع) قريب من ساحل البحر ، وقريب منها ماء يسمى (القضيبة) ومــاء آخر يقال له (المجاز) وانشد :

تراني يا عليُّ أموتُ وجْداً

وَلمْ أرْعِ (القرائنَ) من (رِيام)

ولم أرْعِ(كَدى ف (مشاوطاتٍ)

واوردها (الجاز) وهِيْ ظوامي

قال : وقد رأيت (بوانة) وَتَوَعَّيت فيها .

قال : و (كدى) و (مشاوطات) : خبتـــان ثَمَّةَ ، و (القرائن) : بِرَاقٌ : و (رِيام) : واد تسيل فيه (القرائن) – عن كتاب الجبال والامكنة للزمخشري

- – بئر بني سبّاع :من آبار الاجرد .
- – بئر الحوا تِكة : من آبار الاجرد .
- – بئر الصَّريح : هما بئران بهذا الاسم في الاشعر .
- – تَيْتَدُ : وقد تبدل التاء دالاً فيقال : تَيْدَد ، ويسمى أُذينة – على ما تقدم – وهو من اودية القبلية ، فيـــه عِرْضٌ فيه النخل من صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ما نقـل الحموي عن السيد عَلي المكي .

وورد هذا الاسم مصحفا في معجم مـا استعجم للبكري هكذا (ينبد [١]) قال : وكانت بقايا من جـذام سكان ارض بتلك البلاد يقال لها (ينبد) ، فأجلتهم عنها جهينة ، وبها نخل وماء ، فقال رجـل من جذام حين ظعن منهـــا والتفت الى ينبد ونخلها : –

---

(١) ص (٣٧)

تأبـُري ، ينـدد ، لا آبرَ لكْ .

وكان لعجوز من جذام ، هناك نخيلاتٌ بِفِنَاء بيتها وكانت اذا سئلت عنهن قالت : هُنّ بنَاتي ، فقيل لهن بنات نجْنَة ، ولا يعلمونها كانت بموضع قبل ينـدد ، وفيها يقول الراجز : —

لا يفْرِسُ الغارسُ الا عجْوَهْ

او ابن طـــابٍ ، ثابتاً في نجْوه

او الصياحي ، او بنات نجنه

كذا جاء مصحفا (ينـدد) وقداورد ياقوت القصة ملخصة في معجم البلدان في (تيدَد).

وقال السمهودي : نقلاً عن الهَجَري —

تيدد : من اودية الاجرد ، جبل جهينة يلي وادي الحاضر ، به عيون صغار ، خيرها عين يقال لها أُذينة ، وعين يقال لهـــا الظليل ، وعيون تيدد كلها تدفع في اسناد الجبال ، فاذا أسهل بغراسها لم ينجب زرعها ، وذلك انّ صاحبها كان من جهينة فذمها وقال : هي في جبل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا أسهلتْ تيْدَدَ » ، فما اسهل منها فلا خير فيه ، وقال رجل من مزينة في شيء كان وقع بينهـــم وبين جهينـــة في الجاهلية : —

فان تشبعوا منــا سباع رواوة

فان لها اكناف تيدد مرتعا

● — تِبرِز : عدّه البكري من اودية الاشعر ، وذكر فيــه عيوناً — واخشى ان يكون الاسم مصحفا .

● — الثّاَجةُ : من أودية القبلية ، ونقل السمهودي انه ماء سيــح في حراض، وحراض من اوديـــة الاشعر والقولان مدلولهما واحد .

● — جراَجِرُ : واد لجهينة ، ومن اسفله المرابد، عيون فيها نخل لقريش ولبني ليث [1] .

● — جُفاف : عدّه البكري من منازل جهينة في الحجاز ، وأخشى ان يكون مصحفا .

● — الجَعَلات : ورد الاسم هذا في اقطاع عوسجة بن حرملة بالجيم بعدها عين، فلام (الجملات) في كتاب الامكنة للحازمى في نسخة مخطوطة سنة ٦٢٠ ، ولعلها هي النسخة التي طالعهـــا ياقوت ، وكذا ورد الاسم في معجم البلدان ، وجاء في طبقات

---

(١) معجم ما استعجم للبكري (مادة نصع) .

ابن سعد : الجفلات — بالفاء بدل العين ، وفي كتب أخرى .

ولم اجد فيما بين يدي من الكتب ضبطاً او تحديداً لهذا الموضع .

● — الجِبَاءُ : عدّ البكري في الاشعر هضبة تدعى الجباء لكثرة نحلها ، وقال ان الجباء بيوت النحل .

● — الحاضِرةُ : من اودية الاجرد ، تقدم ذكرها .

● — الحُتّ : من جبال القبلية لبني عرك من جهينة .

● — حراض : موضع في جبل الاشعر ، مَعْمُورٌ ، تقدم ذكره . وقال السمهودي : في شمالي حورة ، ليس به الا ماء سيح يقال له الثاجة .

● — حَرْحار : ذكر ياقوت انه موضع في بلاد جهينة من ارض الحجاز ، ولم يزد على هذا .

● — حُريض : موضع في الاشعر تقدم ذكره .

---

(١) نسخة مكتبة لاله لي في المكتبة السليمانية في اصطنبول رقم (٢١٤٠) .

● ـ حَزْرة : بسكون الزاي على ما ضبطه السمهودي وقال من اودية الاشعر يفرغ في الفقارة سكانه بنو عبدالله بن حصين الاسلميون ، وبه المليحة ، كذا قال : وهذا الوصف ينطبق على (حورة) فلعلها تصحفت على السمهودي .

● ـ حَسْنَا : جبل قرب ينبع ، قال كثير :

عفَا مَيْثٌ (كُلْفا) بعدنا ف (الأجاولُ)
فأثمـاد (حَسْناً) فالبراقُ القوابلُ

وقال : ـ

عفت (غَيْقَةٌ) من أهلها ف (حَرِيمُها)
فبرْقـةُ (حَسْنا) : قاعُها فصريمها

قال الاسلمي : اذا ذكرت (غيقة) فليس معها إلا (حسْنا) واذا ذكرت طريق الشام فهي (حِسْمى) قال : و (حسنا) : صحراء بين (العُذَيبة) وبين (الجار) تنبت الجَبْهل . كذا نقل ياقوت .

● ـ الحصير : انشد الهجري [1] ليحي بن رُبيق الناصري السلمي من ارجوزة :

والسَّرْدَ قد أتْبَعَهُ آثارا

---

(1) التعليقات والنوادر (ص ٢٥٦ النسخة الهندية)

وقال : السرد : قنة بجانب ترعة ، من جانب ، الحصيرُ ، جبلِ الجهينة .

● – الحَوْرَاءُ : كانت أشهر ميناء في الحجاز ، وقد خربت قبل القرن السابع الهجري وقال ياقوت : خبرني من رآها في سنة ٦٢٦ انها ماءة ملحة وبها آثار قصر مبني بعظام الجمال ، وليس بها احد ولا زرع ولا ضرع . انتهى .

وقد بقي اسمها معروفاً الى أول قرننا الحالي حيث كانت احدى محطات الحجاج القادمين من مصر ، وذكر الهجري – ان اضما يصب مــاؤه في البحر ، في الحوراء والصواب انه يصب شمال موقعها فيما بينهـا وبين الوجـــه ، (انظر إضم) .

ونقل ياقوت عن ابن الكلبي [1] قال : كان رجل من جهينة يقال له عبد الدار بن حُديب قال يوماً لقومه : هلم نبني بيتاً – بأرض من دراهم يقال لها الحوراء نضاهي بــه الكعبة ، ونعظمه ، حتى نستميل به كثيراً من العرب ، فاعظموا ذلك ، وأبوا عليه فقال في ذلك : –

---

(١) معجم البلدان (مادة : قَوْدَم)

ولقد اردت بـــأن تقام بَنيّةُ
ليست بحوبٍ او تطيفُ بمأثم

فـــأبى الذين اذا دُعُوا لعظيمة
راغوا ولاذوا في جوانب «قَوْدَم»

يلحون ألا يُؤمَرُوا فاذا دُعُوا
وَلّوْا واعرضَ بعضهم كالأبكم

صفح منافعـه ويغمض كلمة
في ذي افاويه ، غموض المبَسَمِ

ووصفها الشيخ ابو بكر احمد بن هارون[1] فقال : (الحوراء من منازل الحجاز ، على شاطيء البحر الملح ، وهناك آبار ماؤها مالح جداً ، وبها جبل يوجد فيه الرخام الحسن ، فيحمل منه الى سائر البلاد ، وقد قال الشاعر فيها :

فمقلته (الحورا) ودمعي (ينبع) .

وبقي للحوراء شهرة في كتب الرحلات التي تصف طريـق

---

(١) (روضة الازهـــار ، في عجائب الاقطار) النسخة الكتانية (الرباط) رقم ٢٣٨١ — والكتاب مؤلف سنة ٩٢٢هـ

الحجاج المصريين من العقبة الى مكة على ساحل البحر .

وتقع على ست مراحل من « الوجه » ومنها الى ينبع سبع مراحل [1] ، فهي في منتصف الطريق بينهما على وجه التقريب وموقعها — على ما يفهم من كلام المتقدمين بقرب بلدة « املج» في الناحية الشمالية منها بجوارها .

وقد كانت معروفة الى عهد قريب ، حيث نجد صاحب (مرآة الحرمين) قد وضع اسمها فوق المصور الجغرافي الذي رسمه لبيان مراحل الطريق .

ونجد قبله محمد صادق باشا وصفها في كتابه (دليل الحج) حيث مر بها في سنة ١٢٩٧ هـ قائلا [2] : (محطة الحوراء في محل متسع ، به عين ماء عذب ، تجري الى بقعة يتخللها النخيل كجنة وسط هذه الصحراء ، يُرى البحر بعيداً عنها بمسافة نصف ساعة ، وبها أعراب يبيعون التمر والعسل والحشيش للدواب . وذكر انه قطع المسافة بينها وبين (نبك) بـ ١٥ ساعة ونصف) بسير الابل .

ووصفها قبله الشيخ عبد القادر الجزيري ، وقد مرّ بها مرارا

---

(١) رحلة الشتاء والصيف (ص ٦٧ الطبعة الثانية)
(٢) دليل الحج (ص ٢٧)

احداها في سنة ٩٥٧ فقال[1] : (قرية من قرى الحجاز ، تباع بها العجوة ، والسمك يصاد بها على يد جماعـة من الصيادين ، في قوارب اطاف ، وماؤها حفائر مالحة جداً ، وهي بجانب البحر الملح ، والمراكب المتجهة الى الحجاز تستقي منها ، وبهـا شجر الاراك أيضاً . وفي كتاب « عجائب البلدان » : الحـوراء قرية صغيرة ، وبها معدن البرام ويحمل منها الى سائر اقطار الارض ، وشربهم من آبار عذبة) .

اما السيد محمد بن عبدالله الحسيني المدني المعروف بكبريت ، فيقول في[2] وصفها ، وقد مرّ بها في عام ١٠٣٩ :

(والحوراء هـــذه تشتمل على اشجار ملتفة ، وبها شجر الاراك ، واطيار متنوعة ، الا ان ماءهـا في غاية الكدورة ، مفرط في الاسهال) .

● ـ حَوْرَةُ الشَّامِيَّةُ : من أوديـة الأشعر (من اوديـة القبلية) .

---

(١) درر الفوائد المنظمة (ص ٥٢٨)

(٢) رحلة الشتاء والصيف (ص ١٤) .

● – حَوْرَةُ اليمانيةُ : من اودية الاشعر أيضاً (من اودية القبلية) وقال السمهودي : منها يحمل الى المدينة العسل والحنطة الرياضيةالتي تأتي من ناحية الفقْرة .

● – الخَبْتان : مثنى خبت ، ذكر البكري من منازل جهينة الخبتين ، وقد يكون المراد به الارض الممتدة على الساحل ، المنخفضة ، وليس موضعاً بعينه .

● – الخَبَطُ : قال ياقوت : اسم لما يخبط من شجر العضاه ، ويجمع ويعلف الدواب . وهو علم لموضع في ارض جهينة بالقبلية وبينها وبين المدينة خمسة أيام وهي بناحية ساحل البحر .

وأقول : وهم ياقوت رحمه الله – فظن ان (سرية الخبط) منسوبة الى موضع ، والواقع ان السرية اصابها جوع حتى اكلت الخبط ، وهو ورق الشجر ، فعلق بها هذا الاسم .

● – خَريف : واد عند الجار ، يتصل بينبع (عن السمهودي)

● – دِبَرَاءُ : وادٍ من ارض جهينة ، وراء العيص ، بين مغرب الشمس ، وبين العيص ، كذا قال الهجري [1]

● – الدَّحْلانِ : مثنى دَحْل – انظر الاشعر .

---

(١) كتاب التعليقات والنوادر (ص٤٢٢ النسخة الهندية).

● – الدَّهْنَاءُ : وصفها الجزيريُّ فقال : (الدَّهْنَاءُ بلاد الشيخ أحمد البدوي ، وكانت قرية عامرة ، يسكنها بنو إبراهيم قديماً ، بها بيوت ومساجد ، وحدائق واشجار ، وعيون جارية حلوة ، يتزود منها الحجاج عند مرورهم ، فلما سعوا في الارض الفساد ، برز أمر السلطان الغوري بتجهيز العساكر لقطع جادرتهم على يد الامير خايربك ، وقطعت رؤوسهم ، وعملت مصاطب ، ثم عقب ذلك خراب تلك القرية ، وتوالي المحل والجدب ، وغارت تلك العيون ، وجَفَّت الاشجار .. وبالدهناء محاطب بكثرة .. واصحاب الدرك بها الآن طائفة من بني ابراهيم يدعون العيايشة ،منهم محمد بن دواس ، والقوادحة ايضاً) . انتهى باختصار .

وتقع بين ينبع وبين بدر وهي الى ينبع اقرب وهي احدى محطات الحجاج .

وقد حدثت فيها وقعة بين اهلها بقيادة يحيى بن سَبُع ،ومعه زُبيد برئاسة مالك بن رومي ، وبين شريف مكة ومعه عساكر جهزهم السلطان الغوري لحماية الحجاج ، وللقضاء على فتنة ابن سبع واتباعه ،وكانت الوقعة في غرة شوال سنة عشر وتسعمائة .

وقد فصل خبر تلك الوقعة العصامي في تاريخه [٢] .

---

(١) درر الفوائد (٥٣٨) .

(٢) : سمط النجوم (٤/٣٠٤) .

● ــ ذات الأسيل : عين في الأشعر .

● ــ ذاتُ الشُّصُب : موضع في الاشعر .

● ــ ذات النّصب : موضع بمعدن القبلية اقطعــه رسول الله صلى الله عليه وسلم بلال بن الحارث وفي الموطـــأ ان ابن عمر ركب الى ذات النصب فقصر الصلاة . قال مالك : بـــين ذات النصب والمدينة أربعة برد .

(البريد : اربعة فراسخ والفرسخ ثلاثة اميال فالمسافة بينهما = ٣٩ ميلاً) .

● ــ ذو أمَرٌ : وادٍ أقطعه [١] رسول الله صلى الله عليه وسلم عوسجة بن حرملة الجهني ، الذي عقد له الرئاسة على الف رجل من جهينة ــ على ما ذكر ابن حزم وغيره (وانظر : مَرّ) .

ونقل السمهودي ان بعض ولد عبدالله بن الزبير اعــتزل ايام الفتنة بأمر من بطن إضم .

---

(١) جمهرة النسب لابن حزم (ص ٤٤٦) .

● ـ ذو الحماط : منزل للخليفة عبد الملك بن مروان في وادي حورة الشامية ، في الاشعر سمي بذلك لان موضعه كان شجيراً بالحماط .

● ـ ذو خُشُب : واد شرقي المدينة بيوم، متصل باضم .

● ـ ذُو الضّلالة : اسم واد من أودية الاشعر ، فغير اسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

● ـ ذُو المروة : (انظر : المَرْوة) .

● ـ ذُو الهُدى : من أودية الاشعر ، سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

● ـ ذَهْبَان . نقل ياقوت عن ابن السكّيت انه جبل لجهينة أسفل من ذي المروة ، بينه وبين السقيا .

والسقيا المذكورة هنا هي سقْيا الجزْل ، وتسمى سقيا يزيد تقع في طريق الحجـــاج الذين يقدمون من الشام او مصر ، ويتجهون الى المدينة قبل وصولهم الى الوجـــه ، وليست السقيا الواقعة في الطريق بين مكة والمدينة .

● ـ رَقبةُ زَغباء : من جبال القبلية

● ـ رَدْهَةُ عاصم : موضع بطرف جبل عَذْمَر من جبال الاشعر

● — الرَّسُّ : من اودية القبلية .

● — رشاد : واد من اودية الاجرد ، سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

● — رَشَدُ : نقل البكري عن محمد بن حبيب ان بني رشدان بن قيس بن جهينة وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يقال لهم بنو غيّان في الجاهلية ، فقال لهم : « من أنتم » ؟قالو : بنو غيّان ، فقال : « بل انتم بنو رشدان » قال : ما اسم واديكم » ؟ قالوا : غوى ، قال : « بل هو رشد » فلزمتهم .

● — رَضوى : من اشهر جبال جزيرة العرب ، مُطِلٌ على وادي ينبع ، ذو شعاب كثيرة ، واودية ، ومنه كان يقطع حجر المِسَنّ ، ويحمل الى البلاد الاخرى ، ويروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال[1]: « رضوى رضى الله عنه » . ويصب سيل رضوى في غيقة ، ثم يصب في البحر .

وتزعم الكيسانية — من فرق الشيعة — ان محمد بن الحنفيّة ، فيه مقيم ، وانه حيٌّ يرزق .

وشاعت هذه الخرافة لدى بعض المؤرخين المعاصرين فكتب

---

(١) معجم البلدان « مادة رضوى »

يقول : (ويوجد من الشيعة في الوقت الحاضر اتباع لمحمد بن الحنفية ، يقيمون في جبل رضوى ، بقرب ينبع ، وهم على شيء عظيم من البداوة والتوحش ، والبعد عن مخالطة أهل المدن واما عددهم فانه يكاد الا يزيد عن عشرة آلاف ، ويبالغ بعضهم في عددهم فيوصله الى ٢٥ ألفاً ، غير ان العدد الاول هو الاقرب الى الصحة فيما نعتقد .

وهؤلاء القوم ما زالوا ينتظرون عودة محمد بن الحنفية من استتاره ، ليملأ الارض عدلا ، كما ملئت جوراً وظلماً ، واتباع هذا المذهب اكثرهم من حرب وجهينة وبعض الموالي والاتباع، المنضوين تحت سيطرتهم)[١].

والظاهر ان الدكتور محمد حسين هيكل – رحمه الله – تأثر بما كتبه فؤاد حمزة – رحمه الله – عن خرافة المنتظرين لخروج محمد بن الحنفية من رضوى ، فكتب شيئاً اغرب ، وأعجب ، وأعرق في الخرافة فقال : (وما يثير الدهشة ان بعضهم تسلق قمة رضوى ، فرأى عجباً : رأى قوماً لم ينزلوا السهل في حياتهم ، ويرون في نزوله المعرة الكبرى ، فاذا احتاجوا الى

---

(١) المرحوم فؤاد حمزة في كتاب «قلب جزيرة العرب ص ٩٥»

شيء فأتباعهم وضعافهم هم الذين ينزلون ، ورأوا هاؤلاء القوم يعيشون في الكهوف والمغارات عيش الحيـــوان المفترس ، ورأوا احدهم اذا ظفر بغنيمة مما كانوا يــذبحون ، َفرّ بها الى كهفه ، وآوى اليه ، وانبعث ينهشها كما ينهش الحيوان المفترس فريسته ، وجعل يذب عنها من يحاول اقتحام الكهف عليه ، بأن يدفعه برجله ، كما يفعل الذئب والنمر)[1] .

لقد أصبح كل شبر في جبل رضوى مَعْرُوفاً ، بعد أن كتب الاستاذان ـ رحمهما الله ـ ما كتبا ، مما اعتمدا فيه على مجرد خرافات يتناقلها العوام ، لا اصل لها ، ولم يَعُدْ جبل رضوى مَجْهَلاً من مجاهل العـــالم ـ ان صح ان العالم لا يزال فيه مجاهل . !!

● ـ الرَّوْحاء : واد مشهور يقطعه الطريق بين المدينة ومكة ، وهو من عمل الفُرْع ، ويبعد عن المدينة قرابة اربعين ميلاً ، وفيه قرية ، ومنهل من مناهل الطريق ، يسمى الآن : الراحا ـ وابناء البادية كثيراً ما يبدلون الواو والياء ألفاً .

وللروحاء ذكر كثير في الاحاديث النبوية ، وفيها عـــلى

---

(١) : منزل الوحي « ص ٤٠٧ » .

ما يزعمون قبر مضر بن نزار ، ذكر ذلك البكري في معجم ما استعجم .

● – الرُّوينة : من مناهل الطريق بين المدينة ومكة ، وتبعد عن المدينة بما يقارب الستين ميلاً .

● – زقب الشُّطّان : موضع في الاجرد ، فيه بئر الحوانكة – تقدم ذكره .

● – سَكاب : من جبال القبلية .

● – السُّمارُ : جبل سُمار : من جبال الاشعر .

● – سُوَيْقَةُ : عَيْنٌ من عيون وادي الحورة « في الاشعر » على ما ذكر البكري ، وقد تقدم قوله ، وقد اصبحت بلدة كبيرة ، ولها ذكر كثير في كتب التاريخ ، وهي بلدة عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب وبنيه ، وقد قاست كثيراً من ضروب الفتن ، فخربت مراراً ، وعقر نخلها ، وردمت مجاريها ، مما لا يتسع المقام لذكره .

ويحسن ان نورد قصيدة تتعلق بها ، بعدما جرى من تخريبها بعد ثورة محمد بن عبدالله بن الحسن في عهد الخليفة المنصور ، قالها شاعر ينبعي جُهني ، هو سعيد ابن عُقبَةَ الجُهَني ، اورد البكري في معجمه سبعة من ابياتها ، واوردها كاملة ابو

حيّان التوحيدي في كتاب « البصائر[2] والذخائر » ولكنه سمى الشاعر شداد ابن عقبة ، وهو سعيد كما في الاغاني [3] ومعجم ما استعجم للبكري ، قال : —

اني مررتُ على دارٍ فأحزنني
لما مررت عليها ، منظرُ الدّار

وحشٌ ، خلاهُ كأن لم يغن ساكنها
لمُعْتَفِينَ وقطّانٍ وزُوّار [4]

مَنْ للأرامل ، والأيتام يجمعُهم
شتى الموارد من جلسٍ وأكوار؟

مأوى الغريب ، وساري الليلِ مُعتَسِفاً
وعِصْمَةُ الضيفِ والمسكين والجارِ

---

(1) : معجم ما استعجم ٧٢٨

(2) : « ١ / ٥٠٥ الى ٥١٠ »

(3) : « ٥/١١٤ »

(4) : رواية البكري في (معجم ما استعجم) :

وحشاً خراباً ، كأن لم تغنَ عامرةً
بخير اهلٍ ، لمُعترّ وزُوّار

بهـــا مساكن كان الضيفُ يألفُهَا
عند التَّنَسُّمِ من نَكْبَاءَ مِهمار

فيها مرابِطُ أفراسٍ ، ومُعتلجٌ
وحاملٌ اخريَاتِ الليل من سَمَّارِ

فيها معالمُ إلا انهـــا درست
من واردِينَ ، ونُزَّالٍ وصُدَّارِ

فيهـــا مَعانٍ وآياتٌ ومُختَلفٌ
في سالف الدهر ، من بادٍ وحُضّارِ

ثم انجلت، وهي قد بادت معالمُهـــا
ألقى المراسيَ فيهـــا وابلٌ ، سَارِ

وخاوياتٍ كساهـــا الدهرُ أغشيةً
مِنَ البِلى ، بعد سُكّان وعُمّار

جار الزمانُ عليهـــا فهي خاشعةٌ
طورَينِ ، من رائحٍ يسرى ، وأمطار

فغاضت العينُ لما عيل بجرعهـــا
فيضَ القَريِّ جفت عنه يــدُ القاري

ودارت الأرضُ بي حتى اعتصمت بها
واستَكَ سمعي بعرفانٍ وإنكار

حتى اذا طال يَوْمٌ مـــا يفارقني
ما أوجعَ القَلْبَ مِن حُزْنٍ وتذكار

وحان مني انصرافُ القلبِ وانكشفتْ
عمياءُ قلبٍ شراهُ النومُ مِهْجَارِ

لا يبعد الله حيا (١) كان يَجْمعهم
مَنْدَى (سُويقة) أخياراً لأخيار

الباذلين اذا مـــا الثقل أعدمهم
جادتْ أكفُّهُمُ بالجودِ مِـدرارِ

والرافعين لساري الليـل نارَهـمُ
حتى يَجيء على (٢) سدْرٍ من النـار

(١) : رواية البكري في (معجم ما استعجم) : قَوّماً...
جَنْبَا (سُوَيقة) الخ .

(٢) : رواية البكري في (معجم مـــا استعجم : ...
حتى يَؤُمَّ على ضوءٍ الخ .

والدافعين عن المُحتاج خَلَّتَهُ
حَتَّى يحوز الغِنى من بَعْدِ إقتار

والقائلين له : هَـلا بِمَرْحَبَةٍ
لِج في انفساحٍ ، ورحبٍ ، أيُّها الساري

والضامنينَ القِرى في كلّ راكدةٍ
فيها سَدِيفُ شَظايا تامكٍ واري

والمدركين حلوماً غيرَ عَازِبَةٍ
والناهضين بجَدٍّ غيرِ مِعثار

والعاطفينَ على المولى حُلومَهُمُ
حتى يَفيءَ بِحِلْمٍ بَعدَ إدْبار

والعائدين اذا ضَنَّتْ بِدَرَّتِها
أمُّ الفَصيل ، فلم تَعْطِفْ بإدرار

والناشرين اذا ما شَتْوَةٌ جَمَدَتْ
فلم يجسْ بِنارٍ قِدرُ أيسار

والمانعين غداةَ الرَّوْعِ جارَهُمُ
بكل أجرد ، او جرداءَ خطار

والرافعين صدورَ العيسِ لاغيةً
تبغي الالهَ بحُجّاجٍ وعُمّارِ

على حَراجيجَ اظلاعٍ مُعوّذةٍ
ترمي الفِجاجَ بركبانٍ وأكوارِ

فليتني قبلَ ما أمسي لِحُزْنِكُمُ
وكلُّ شيءٍ بميقاتٍ ومقدارِ

لفّت عليَّ شِفاهُ القبرِ في حدثٍ
عُرى المَنُونِ ، فرادى تحتَ احجارِ

ولم أرَ العيشَ في الدنيا ولم يَرَني
ولم يجيئني بأنيابٍ وأظفارِ

ولم أفِضْ عَبَراتٍ من مواكلةٍ
على كريمٍ ، بسَفْحِ الواكفِ الجاري

● ـ الشّبا : نقل البكري عن محمد بن حبيب قوله : الشبا ، قريب من الابواء لجهينة ، وأنشد لِكُثَيّر .

تحُلُّ اداثيهم بودّانَ فالشّبا
ومسكنُ اقصاهم بنهدٍ فمنصحِ

وقد نقل ياقوت ان الشَّبا وادٍ بالاثيل ، من اعراض المدينة ، فيه عَيْنٌ ، والأثيل من اودية الصفراء .

- شَميسى : من اودية القَبَلِيَّة .

- شُوَيلة : من مواضع الأشعر .

- صرار : من جبال القَبَلِيَّة .

- الصّفراء : عِرْض كبير من اعراض المدينة ، فيه أودية وقرى يقع بين ينبع ، والمدينة ، وماؤه يجري الى ينبع ، وقد مَرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم به غير مَرَّة .

ويطلق اسم الصفراء على قرية في ذلك الوادي .

وقد وصفها البكرى فقال : بأنها كثيرة المزارع ، والنخل ، ماؤها عيون ، يجري فضلها الى ينبع وهي على يوم من جبل رضوى ، منها في المغرب .

ومن عيونها : عين يقال لها البُحَيرة ، أغزر ما يكون من العيون ، تجري بين أحناء رمل ، فلا تمكن الزارعين غلتها الا في مواضع يسيرة تتخذ فيها البقول والبطيخ .

وعن عائشة قالت : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر الآخرة حتى اذا كنا بالاثيل عند الصفراء بين

ظهراني الاراك قال لي : « تعالي حتى اسابقـك » . وكان أبي اللحم الغفاري الصحابي ينزلها .

وفيها مات عبيدة بن الحارث بن المطلب ، قطعت رجله ببدر فوصل الصفراء مرتثاً ، وفيـــه تقول هند بنت اثاثة بن عباد ابن المطلب .

لقد ضمنوا الصفراء مجـداً وسؤددا
وحلما أصيلًا ، وافر اللب والعقـل

ويرد للصفراء ذكر كثير في كتب الرحـــلات التي تصف طريق الحج ، ذلك انها تقع بطريق الحجاج القادمين من مصر والمغرب ، ومن مرّ بطريقهم حينما يأتون الى المدينة المنورة من بدر الى الصفراء ، ثم الى ذي الحليفة ثم الى المدينة ، ثم من المدينة الى الصفراء ، ثم الى ينبع ، ومنها يستقيم الطريق الى مصر [1]

ومن الطف ما قرأته في وصف الصفراء مـــا جاء في كتاب (روضة الازهار ، في عجائب الاقطار [2]) للشيخ ابي بكر احمد بن

(١) رحلة الشتاء والصيف « ص ٦٧ »

(٢) روضة الازهار (نسخة المكتبة الكتانية في الخزانـــة العامة في الرباط رقم ٢٣٨١)

هارون ، الفه سنة ٩٢٢ ـ قال(وادي الصفراء وهو مكان نزيه ، ليس في ارض الحجاز انزه منه ، وبه عيون ومزارع ونخل وفواكه ، وبه قبائل كثيرة من العرب ، ولهم مواشي اغنام وجمال ، وغير ذلك وهو الطف مكان بأرض الحجاز) .

ولا تزال الصفراء معروفة بهذا الاسم ، ويضاف اليها عدد من القرى القريبة منها مثل : بَدْر ، والمسيجيد . ومن قراها : خيف الحزامي ، الواسطي ، الصادرة ، خيف جديد ، الفارعة ، عين جديد ،الحسينية، العالية ،البركة ، الدغيبج – الحمراء – الكحلة وقد درس كثير من قرى الوادي ، بسبب الجفاف وقلة الامطار .

واغلب سكانه – في العهد الحاضر – من قبيلة حرب، في الوقت الحاضر من الاحامدة ، والظواهر ، وصبح ، والحوازم وغيرهم . وفي بعض جباله خلايا للنحل ، يجلب منها العسل الى المدينة المنورة .

● – صُفَيْنة : ورد ذكرها في كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لبنى شنج من جهينة [١]

---

(١) كتاب « الوثائق السياسية » للوثيقة رقم ١٥٥ «ص ١٤١ »

ومعروف أن صفينة قرية غناء تقع في جنوب المدينة وفي الطريق النجدية بينها وبين مكة ، بقرب (مهد الذهب) .

ويظهر ان صفينة التي لجهينة غير هذه ، لبعد هذه عن بلادهم ان لم يكن الاسم مصحفاً .

● ــ صِنْدِدُ : جبل من جبال تهامة ، ورد في شعر كثير وهو يرثي عبد العزيز بن مروان :

نَعَيْنَ ، ولو أسْمَعْنَ أعلامَ صِنْدِدِ
وأعلامَ رَضْوى ، ما يقُلْنَ، ادَرهمّتِ
« ادرهمت : اي سقطت الاعلام »

● ــ الصَّهْوَةُ : صدقة عبدالله بن عباس على زَمْزَمَ ، فيها رقيق يفتلون الحزم ، منها ليستعمل ارشية ، تقدم ذكرها في الاشعر ، وقال السمهودي : ان تلك الصدقة بين الخليفة يوكل بها

● ــ ضاس : موضع بين المدينة وينبع ، قال كثير .

لعينك تلك العير حتى تغيبت
وحتى اتى من دونها (الخبتُ) اجمع
وحتّى اجازت بطن (ضاسٍ) ودونها
(دعسان) فهضبا (ذي النجيل)فـ (يَنْبع)

واعرض من « رضوى » من الليل دونها
هضاب تَردُ العين ، عَمَّنْ تشيّع

اذا أتْبَعَتْهُم طرفها حال دونها
رذاذ على إنسانها يتوبع

« من معجم البلدان »

طاشاء : واد من اودية الاشعر يصب على الصفراء .

ظَبْيَةُ :هو حد اقطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم عوسجة بن حرملة من ذي المروة[1] .

ظَلِمُ : من اودية القبلية ، وهو من اودية الاشعر — على ما ذكر الهجري .

● — عَبّاثِرُ : نقل ياقوت عن ابن السكيت انه نقب ينحدر من جبل جهينة ، يسلك فيه من خرج من إضم ، يريد ينبع ، ومثله : قاعِس والمناخ ، منزل كلها انقب يُؤدّين الى ينبع ، الى الساحل .

وتقدم في الكلام على الاشعر ان عباثر واد من اوديته ،وفيه طريق يفضي الى ينبع .

(١) معجم البلدان « مادة ظبية » .

● – عَذْمَرْ : جبل عظيم من جبال الاشعر .

● – العُذيبة . « انظر حسنا » وهي صحراء لا تزال معروفة يخترقها طريق ينبع الى جدة .

● – العَرْج واد عظيم من اشهر الاودية الواقعة بين مكة والمدينة ويبعد عن المدينة بمسافة تقرب من مائة ميل على ما حدد البكري في المعجم . وللعرج ذكر كثير لوقوعه في الطريق بين المدينتين الكريمتين ، وهو غير العرج الذي ينسب اليه الشاعر العرجي ، ذاك عرج الطائف ، اسفل وادي وجّ ، والموضعان لا يزالان معروفين .

● – عَرِمُ . واد ينحدر من ينبع الى البحر ، عن السمهودي

● – عزور . جبل يفصل بينه وبين رضوى طريق المعرقة الى الشام وبين الجبلين قدر شوط فرس وقد وصفهما عرام بن الاصبغ السلمي الاعرابي ، وصف الخبير بهما ورسالته مطبوعة .

وسيل عَزور يصب في غيقة ثم يصب في البحر .

● – العُشَيرة : موضع من ينبع ، غزاه رسول الله « ص » وفيه مسجده ، وله ذكر كثير في كتب السيرة ، وفي كتب الحديث . وقد اندرس هذا الموضع ، ويقع بقرب « عين البركة »

التي لا تزال معروفة ، مع قدمها ، وكانت احدى عيون هذا الموضع ، يقع فيما بينها وبين البحر .

● – عُوَيْنسجَةُ : موضع في الأشعر .

● – العُوَيْقِلُ : نقب في هَضْبَةِ الجياء في جبل الاشعر .

● – العِيصُ : بكسر العين المهملة بعدها ياء ، ثم صاد مهملة

وادٍ من اشهر اودية الحجاز ، الواقعة في الجهة الشمالية الغربية من المدينة ، وهو تابع الآن لأمارة ينبع ، ولهذا الوادي ذكر كثير في السيرة النبوية ، لوقوعه بقرب طريق القوافل التي تأتي من الشام وتذهب اليه ، وقد ذكر ابن اسحاق ان ابا بصير بن سهيل بن عَمْرٍو خرج حتى نزل بالعيص ، من ناحية ذى المروة على ساحل البحر ، بطريق قريش التى كانوا يأخذون الى الشام ، وذلك عندما اتفق الرسول عليه الصلاة والسلام مع قريش على ان يرجع اليهم من فرّ منهم ، وليس العيص على ساحل البحر ، بل هو بعيد منه . وهو يصب في وادي الحمض « انظر إضم » .

ووادي العيص فيه عيون ونخل ، وفي عام ١٣٦٣ – كان محصول زكاته من النخل ، باعتبار عشر الغلة « ٨٤٧٥ » أقة من التمر من القرى الآتي بيانها :–

٤١٩٠ من قرية النّجْل (بالجيم)

١٧٦٩ من عين العُنَيْنات

٠١٩٨ من الأجرد

١٠١١ من الحُصَيْن

١٣٠٧ من القعْرة .

ويسقى العيص من عيون تنحدر من الحرة ، ومـــا بقرب الوادي من الجبال .

والطريق الموصل اليه ليس معبداً ، ويبعد عن مدينة ينبـع بما يقارب الـ ١٥٠ كيلا .

ولا يزال سكان العيص من قبيلة جهينة .

● — الغُرَابات : أُجَيْبِلٌ سودٌ ، بين ينبع والجار ، في شرقي الطريق ، اذا خرجت من الجار تريد ينبع ، بينك وبين مطلـع الشمس (بلاد العرب)

● — غَشِيبّة : موضع من ناحية معـــدن القَبَلِية ، ويروي (عسِيّة) بمهملتين — عن ياقوت —

● — غَوى : وادٍ غيرالرسول صلى الله عليـــه وسلم اسمه ، فسماه (رشاداً) وقد تقدم ذكره .

● – غَيْقَةُ : خَبْتٌ على ساحل البحر ، يمتدُّ من ينبع الى قرب بَدْرٍ ، وتصب فيه سيول الصفراء وما بقربها من الاودية وسيول غيقة تصب في البحر . وذكر عرام ان يَليل وهو وادي ينبع – على ما ذكر – يصب في غيقة (وانظر يليل) .

● – الفَرَعُ : بالفتح – من اودية الاشعر قرب سويقة ، بينها وبين وادي مثعر ، على مرحلة من المدينة .

وهو فَرَعُ المِسْوَرِ بنِ ابراهيم بن عبد الرحمن ابن عوف

وذكر الزبير عن محمد بن المسور انه كان بفرع المسور بن ابراهيم قال : فرآى فراس المُزني جبلًا فيه عروق مَرْوٍ ، فقال: ان هذا لمعدن، فلو عملته . قال محمد بن المسور : ما لك وله ، انما هو لنا ابتعنا مياهه ، واقطع لنا سائره أبانُ بنُ عثمان في امارته ، فقال المزني : عندي احق من ذلك قطيعةٌ من رسول الله (ص) قال محمد : فرجعت الى ابراهيم فذكرت له ذلك فقال : صدق ان يكن معدناً فهو لهم ، اقطع لهم رسول الله معادن القبلية غورِيّها وجلسيّها وذات النصبُ وحيث صلح الزرع من قدس وفي روايةٍ : وثنايا عمقٍ ، وفي رواية عقب جلسيها : عَشْية وذات النصب وحيث صلح الزرع من قدس ، ان كان صادقا.

● – الفَقَارَةُ : موضع في الاشمر ، تقدم ذكره ، ولعله هو ما يعرف الآن باسم الفقرة[1] ، وذكر السمهودي بأن العسل والحنطة الرياضية تحمل الى المدينة من حورة اليمانية ومن ناحية الفقرة .

الفَيْضُ : ذكر البكري انه من مياه جهينة ، واورد شاهداً من قول ابن الطثرية ، واخشى ان تكون (جهينة) تصحيف (جعدة) اذ بلاد جعدة قريبة من بلاد ابن الطثرية ، بخلاف بلاد جهينة .

● – َفيْف : ذكره البكري – فيما نقل عن ابن الكلبي – من منازل جهينة ، فقال[2] : ونزلت طوائف من جهينة بذي المروة وما يليها الى فيف انتهى .

● – قاعِسُ : من جبال القبلية .

● – القَبَلِيَّة : بفتح القاف والباء ، واوضح تعريف لها ما اورده الزمخشري في كتابه عن الشريف عُلي ّبن وهّاس المكي – وهو خبير بهذه المواضع – قال : القبلية سراة فيما بين

---

(١) ينطقه سكانه (الفجرة) يضخمون القاف فيخرجونها من مخرج الجيم .

(٢) معجم ما استعجم (ص ٣٨)

المدينة وينبع ، ما سال منها الى ينبع يسمى بالغور ، وما سال منها في اودية المدينة يسمى بالقبلية ، وحدها من الشام ما بين الحُتّ - وهو جبل من جبال بني عَركَ من جهينة ، وما بين شرف السيالة ،والسيالة ارض يطؤها الحاج ، وفيها جبال واودية ، هذا ما ذكره السيد علي منها - مرتباً على حروف المعجم : -

أذينَةُ « وهــو تيتدد » - البَلياء - بُواط - تَيتَدُ - الثاَجةُ - حراضان - حَوزة - الرّس - رسوسَ - تَميشي - ظَلِمُ - العشيرة - مَشغَرُ - مِلْحَتانِ - منكثة - النّاصفة .

ومن جبالها : -

الاجْرَدُ - رقبَةُ زَغْباء - الحتَ - سَكاب - صِرارُ - قاعِسُ - القِلادَةُ - الكُوَيرةُ - الحيلة - المُقْشَعِرُ .

وفي القبلية معادِنُ . وروي ان الرسول عليه الصلاةوالسلام اقطع بلاد بن الحارث المزني وكتب له : بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما اعطى محمد رسول الله بـــلال بن الحارث اعطاه معادن القبلية ، غوريّها وجلسيّهـــا ، غشية ، وذات النصب ، وحيث صلح الزرع من قُدْس ، ان كان صادقاً .و كتب معاوية.

● - قُدس . نقل البكري عن يعقوب بن السكيت ، قُدْس

وآرة جبلان لجهينة ، بين حرّة بني سُلَيم والمدينة .

والذي عليه اكثر العلماء ان جبل قدس لمُزينة وهو جبل معروف في الطريق بين مكة والمدينة ، وقد وصفه عرّام بن الاصبغ السلمي في رسالته ، وحدّده تحديـــداً دقيقاً . فقال : القدْسان ، قدْسٌ الابيض ، وقدس الاسود ، وهما عند ورقان فاما الأبيضُ فيقطع بينهوبين ورِقان عقبة يُقال لها رَكوبَة ، وهو جبل شامخ ينقادُ الى المُتعشّى ، بين العَرْج والسّقْيا ، واما قُدْس الاسودُ فيقطع بينه وبين ورقانَ عقبةٌ يقال لها حَمْت ، والقُدْسان جميعاً لمزينة .

● – قِرْدِسُ : بكسر القاف جبل في الحجاز ، قرب حرة النار ، في ديار جهينة – عن ياقوت –

● – القِلادّة : من جبال القلبية .

● – قَوْدَم : اسم جبل ورد في شِعر عبد الدار بن حُذيب الجُهَنى تقدم في (الحوراء) .

● – الكُويَرة : من جبال القبلية .

● – لَظى : موضع تقدم ذكره في قصة الجهني الذي قال له عمر بن الخطاب « ض » ما اظن اهلك الا احترقوا .

● ـ لَقْف . عده البكري ـ فيما نقله عن ابن الكلبي ـ من منازل جهينة واورد في تحليته انه يقع في الطريق بين مكة والمدينة ، وهو قريب من المدينة ، ولآل الزبير فيه ميلك ، واورد من شعر محمد بن عروة بن الزبير :

لعَنَ اللهُ بَطنَ لقْفٍ مَسِيلاً
ومُجَاجاً ، فلا أحِبُّ مُجاجا

لقيتْ ناقتي به ، وبلقْفٍ
بلداً مُجْدِباً وارضاً شَحَاحَا

واورد ياقوت ـ نقلاً عن عرام ـ وصف موضع آخر اسمه لقْفُ في ناحية السوارقيّة .

● ـ مَبنْكَثَةُ : من اودية الأجرَدِ ، وضبطها ياقوت بالنون منكثة .

● ـ مَثغَرُ : (يروى بالعين وبالغين ، ويحتمل ان يكون من الثغر ، وهو الثآليلُ لحجارته .. أو يكون من الثغرور ، وهي رؤس الطراثيث) .

واد من اودية القبلية ، هذا ما عرفه به الحموي ، ونقل السمهودي : واد يفصل بين مَلَلٍ والفُرَيْش . واورد البكري قصة خرافية يحسن ايراد ملخصها لطرفتها ـ نقلاً

عن ابن الكلبي ، قال : بينا الناس ذات يوم حـول الكعبة ، اذ هم بخلق عظيم يطوف قد آزى رأسه أعلى الكعبة ، فأجفل الناس هاربين فناداهم ألا تُراعوا ، فنظروا فـاذا هي امرأة فقالوا : ما أنتِ انسية أم جنيّة ؟! قالت . بلْ إنسية من جُرهُم ثم قالت . مَنْ ينحَرُ لي كل يوم جزوراً ، ويعدّ لي زاداً وبعيراً ، ويبلغني بلاداً قوراً، أعطِه مالا كثيراً ، فانتدبَ لذلك رجلانِ من جهينة ، فسارا بها اياماً ، حتى انتهت الى جبـل جهينة ، فأتت على قرية نمل وذرٍ ، فقالت . يا هذانِ ، احفرا هذا المكان فاحتفرا عن مالٍ كثير ، من ذهبٍ وفضّةٍ ، فأوقرا بعيريهما ، ثم قالت لهما : إياكما أن تلفتّا فيختلس ما معكما . قال : وأقبل الذر حتى غشيهما ، فمضيا غـير بعيدٍ فالتفتا ، فاختُلِسَ ما كان معهما من المال ، وناديا : هل من ماء ؟! قالت نعم ، انظرا في موضع هذه الهضاب ، ودخل الذر منخريهـا ومسامعها ، فوقعت لشقها ، فهلكت . ووجد الجهنيّانِ عند الهضبة الماء، وهو الماء الذي يقال له مَشجَرُ وهو بناحية الفَرْش فَرْشِ مَللٍ ، من مكة على سبع او نحوها ، ومن المدينة على ليلة ، الى جانب مثعر ، ماء لجهينة معروف ، فيقال : انهما بقيا بتلك البلاد وصارت بها جماعة جهينة .

وذكره البكري بالعين المهملة وقال في الكلام على تَملِلٍ : وبالفرْش : الجَرِيبُ ، وهو بطن واد يقال له مثعرُ ، وهو ماء لجهينة ، وذكره الاحوصُ فقال :

عَفا مَثعرٌ من اهلِه فثقيبُ
فسفحُ اللوى ، من سائرٍ ، فَجَرِيبُ

فذو السَّرحِ أقوى ، فالبراقُ كأنها
بِجَوْزَة ، لم يحلل بهنَّ عريبُ

وذكر السمهودي ان وادي مثعر يفصل بين الفَرْش والفُرَيش

● المخاضَةُ : من مواضع الاشعَرِ ، تقدم ذكرها .

● المَرَابدُ : نقل البكري عن يعقوب انه قال : ينصُعُ . جبلُ أحمر ، بأسفل الحجاز ، مُطِلّ على الغور ، من يسار ينبع لجهينة ، قال مُزَرِّدُ :

اتاني ، واهلي في جهينة دارهُمْ
بِنِصعٍ ، فرضوى ، من وراء المرابدِ

قال : رضوى : جبل جهينة ، بين ينبع والحوراء ، والحوراء فرضة من فرض البحر ، ترفأ اليها السفن من مصر ، وينبع : وادى

علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، ورضوى قفاها حجاز ، وبطنها غور ، يُضير به ساحل البحر ، والمرابد : عيون فيها نخل لقريش وبني ليث بأسفل جُرَاجِر ، وهو وادٍ لجهينة .

● — مُرّ : ذكر ابن الكلبي في « جمهرة النسب » وفي « نسب معدٍ واليمن الكبير » ان الرسول « ص » أقطع عَوْسَجة بن حَرْمَلة الجهني . ذَامر .

وقد جاء في النسخة المطبوعة من كتاب (جمهرة انساب العرب) لابن حزم — الطبعة الاولى مطابقاً لما في كتابي ابن الكلبي المخطوطين ، وفي الطبعة الثانية من جمهرة ابن حزم . « ذا أمر » واشار المحقق الى ان ما في الطبعة الاولى تحريف . وكأن الذي حمله على هذا شهرة ذي أَمر ، بخلاف ذى مَرّ ، ولكن ذا امر من مواضع غطفان في نجد ، فكيف يُقطع جُهَنيّ موضعاً ليس في بلاده ؟

ان مختصر الجمهرة — نسخة مكتبة راغب باشا — المخطوطة سنة ٦٦٥ على غاية من الدقة وتحري الصحة ، وقد جاءت الكلمة فيها « ذا مَرٍّ » بفتح الميم وتشديد الراء وتحتها كسرتان [١] ونسخة

---

(١) مختصر الجمهرة نسخة مكتبة راغب باشا في اصطنبول « ص ٣٠٦ »

كتاب النسب الكبير ، وان كانت غير متقنة الخط ، الا إنها مخطوطة سنة ٦٢٦ هـ وكتب فيها : « ذامر » .

وفي بلاد جهينة : مرّ ، واسماء المواضع كثيراً ما تلحق بها : (ذا) .

ذكر الحازمي في كتاب البلدان [٢] . مُر — بضم الميم ، واد من بطن إضم ، وقيل هو بطن إضم .

وهذا الموضع الذي ذكره الحازمي في بلاد جهينة والقول بأنه هو الذي أقطع عوسجة الجهني ، هو اقرب الاقوال . وان هذا الموضع هو الذي ذكر المتقدمون انه يقع بقرب ذي المروة ، في الطريق بينها وبين المدينة « انظر المروة »وتقدم قول السمهودي ان امر من بطن اضم ، وهو يعني « مَراً »

● — المَرْوَةِ « ويقال : ذو المروة » [٣] مدينة لها شهرة تاريخية ، نقل السمهودى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل

---

(١) نسب معدو اليمن الكبير نسخة الاسكوريال«ص٥٢٣»
(٢) نسخة لاله لي « ص ١٧٥ »
(٣) وفاء « ٢/٣٧٣ »

بها حينما ذهب إلى غزوة تبوك فقال فيما نقل عن ابن زَبالة . خرج - صلى الله عليه وسلم - حتى اتى المروة فأسند ظهره اليها ، ملصقاً ثم دعا قائلاً : « اللهم بارك فيها من بلاد ، واصرف عنهم الوباء ، واطعمهم من الجني ، اللهم أسقهم الغيث ، اللهم سلمهم من الحاج ، وسلم الحاج منهم » ، ثم اجتمعت اليه جهينة من السهل والجبل ، يشكون اليه نزول الناس بهم ، وقهر الناس لهم عند المياه ، فدعا اقواماً فأقطعهم ، واشهد بعضهم على بعض « بأني قد اقطعتهم وأمرت ألاّ يُضامـوا ، ودعوت لكم ، وأمرني حبيبي جبريل أن اعدكم حلفاء[1] » .

ولحقته جهينة في الرَّحْبة ، فقال لهم : « مَنْ أهل ذي المروة » ؟ قالوا : بنو رِفاعة من جُهينة فقال : « قد قطعتها لبني رِفاعة » . فاقتسموها فمنهم من باع ، ومنهم من أمسك فعَمِل[2] .

وازدادت شهرة تلك المدينة بعدما أصبحت محطة للحجاج يقدمون من الشام ، وللقوافل التي تتجه من المدينة ، ومن ينبع الى بلاد

---

(١) كثيراً ما تضاف « ذو » الى اسماء المواضع .

(٢) وفاء « ٢/١٨٣ »

الشام ، والى سواحل البحر الاحمر الشمالية .

ثم ضعفت في العصور المتأخرة بضعف الحكم في البلاد ، وانتشار الفوضى ، وانقطاع الحجاج من ذلك الطريق .

وهي معدودة من وادي القرى .

وقد وصفها البشاري « القرن الرابع الهجري » فقال : [1]

والمروة بلدة حصين ، كثيرة النخل ، جيدة التمور ، سقياهم من قناة غزيرة ، عليها خندق وأبواب حديد ، وهي معدن المقل والبَرْدي ، حارة في الصيف ، الغالب عليها بنو جعفر .

وَعدّها هي والحوراء من مدن خيبر .

وحدد المسافة بينهاوبين ينبع فقال : من ينبع الى رأس العين مرحلة ، ثم الى المَعْدِن مرحلة ، ثم الى المروة مرحلتين [2] .

وذكر ان بينها وبين ينبع معادن ذهب .

---

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم « ص ٨٣ الطبعة الثانية ١٩٠٦ » .

(٢) المصدر السابق « ص ١٠٧ »

(٣) » » « ص ١٠١ »

وقال ياقوت : ذو المروة : قرية بوادي القرى ، وقيل بين خشب ووادي القرى ، نسبوا اليهـــا ابا غسان محمد بن عبد الله المَرْوي .

وذكرها عَرضاً ، فقال في تحديدالمواضع الآتي ذكرها : —

بلاكث : قـارة من ذى المروة بينـــه وبين ذي خشب ببطن اضم .

طيخ : موضع بأسفل ذي المروة ، وذو المروة بين خشب ووادي القرى .

ذَهبان : جبل اسفل ذي المروة .

ظبية : اورد حديث اقطاع حرملة بن عوسجة المروة .

وقال البكري : ذو المروة من اعمال المدينة ، قرى واسعة ، وهي لجهينة ، كان بها سبرة بن معبد الجهني ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وولده الى اليوم فيها . بينها وبين المدينة ثمانية بُرد (البريد = ٤ فراسخ ، الفرسخ = ٣ اميال = ٨ × ٤ = ٣٢ × ٣ = ٩٦ ميلا) والحوراء من وراء ذي المروة على ليلتين .

وذكر البكري : ان مدينـــة ذي المروة بين ذي خشب ووادي القرى .

وكان ذو المروة يقع في طريق حجاج الشام ، ولهذا حدد المتقدمون [1] المراحل بينه وبين المدينة باربع هي :

المدينة ذو خشب ، السويداء ، المرّ ، ذو المروة .

وقال البشاري [2] : « تأخذ الطريق من يثرب الى السويدية او الى بطن نخل مَرْحلتين ، مَرْحلتين ، ومن السويدية الى ذي المروة مثلها فان اردت جادّة مصر ، فخذ من المروة الى السقيا « سقيا يزيد ، هي احسن مدن هذه الناحية والبساتين والنخيل متصلة من قرْح [3] اليها » ثم الى بَدّا يعقوب ثلاثاً ، ثم الى العَونيد ، مَرْحلة ، وان اردت الشام ، فخذ من السقيا الى وادي القرى مرحلة ، ثم الى الحجر مرحلة ، ثم الى تيماء ثلاث مراحل » .

---

(١) ابن رستة « ١٨٣ » ابن خرداذبة « ١٥٠ » قدامة بن جعفر « ١٩١ »

(٢) احسن التقاسيم « ص ١٠٧ »

(٣) ناحية قرح تسمى وادي القرى ، وليس بالحجاز اليوم بلد اجل وأعمر وآهل ، واكثر تجارة واموالا وخيرات بعد مكة —

ويفهم من قول السمهودي [1] : (كان بها عيون ومزارع وبساتين أثرها باقٍ الى اليوم) انها درست قبل القرن العاشر .

كما يفهم من القول الذي نقله عن الزبير في وصف وادي إضم ان ذي المروة تقع في مجتمع وادي اضم بوادي الجزل من الغرب، ووادي العيص من القبلة - يفهم من هذا ان الاطلال التي تعرف الآن في متسع التقاء تلك الاودية ، والتي اطلق عليها في الخارطة [2] اسم (أم ذرب : Omm DharB) وتقع على الدرجة ٢٥َ / ٣٨ْ العرض الشرقي والدرجة ٢٥/٢٦ْ شمال خط الاستواء - تلك الاطلال هي اطلال بلدة ذي المروة ، لانطباق

- من هذه ، عليها حصن منيع ،على قرنته قلعة ، قد احدقت به القرى ،والتفت به النخيل ،ذو تمور رخيصة ، واخباز حسنة ، ومياه غزيرة ، ومنازل انيقة واسواق حارة ، عليه خندق وثلاثة ابواب محددة ، والجامع في الازقة .. وهو بلد شامي . مصري . عراقي . حجازي . غير ان ماءهم ثقيل وتمرهم وسط ،وحمامهم خارج البلد . « البشاري : ص ٨٣/٨٤ »

(١) وفاء « ٢ ٨١٢ » .

(٢) ابحاث جيولوجية مختلفة خريطة رقم B ٢٠٥ – I

اكثر ما ذكره المتقدمون على ذلك الموضع .

ولشهرة « المَرْوة » او « ذي المروة » ـ وهو الاكثر ـ عند متقدمي العلماء ، كانوا يحدّدون كثيراً من المواضع بالنسبة اليها فيقولون مثلًا :

عَثْمانُ : جبل بين المدينة ، وبين ذي المروة ، في طريق الشام من المدينة .

العُشَيْرَةُ : حصن بين ينبع وبين ذي المروة ـ مع ان شهرة العشيرة اقوى من شهرة ذي المروة في كتب السيرة النبوية .

العيصُ : من ناحية ذي المروة .

وقد اقطع الرسول صلى الله عليه وسلم عوسجة بن حرملة الجهني من ذي المروة ، فقد روى ابن سعد [1] . كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم لعوسجة بن حرملة الجهني ، بسم الله الرحمن الرحيم : هـذا ما أعطى الرسول عوسجة بن حرملة الجهني من ذي المروة ، اعطاه مـا بين بلكثة الى المصنعة ، الى الجعلات الى الحد ، جبل القبلة ، لا يُحَاقه احد ، ومن حاقّه فلا حق

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد « ج ٢ ص٣٥ الطبعة المصريّة

له ، وحققـه حق ّ ، وكتب العلاء بن عقبة وشهد [1] .

● ـ مَشجَرُ : ـ ضبطه البكري بفتح اوله واسكان ثانيه ثم جيم مفتوحة وراء مهملة ـ وهو ماء تقدم ذكره في (مشغر) وقد ذكره ياقوت باسم « مُنْتَخِر » وسيأتي .

● ـ المصليّ : عدّه البكري من منازل جهينة ، فيما نقل عن ابن الكلبي ، ولم اعثر على تحديد لموقعه .

● ـ المَصنْعَة : موضع ورد ذكره في اقطاع عوسجة ، من ذي المروة وتقدم .

● ـ المُقْشَعِرُ : من جبال القبليّـة .

● ـ مِلْحَتَان : من اودية القبلية .

● ـ مُلَيحَةُ الرّمْثِ : موضع في الاشعر

● ـ مُلَيْحَةُ الحَرِيص : موضع في الاشعر .

● ـ مُنْتَخِر : من نخر العظم إذا بلي ، موضع بناحية فرش

---

(١) البلدان للحازمي ، معجم البلدان لياقوت « مادة ظبية » وقد اعتمدت على كتاب الحازمي لقدم كتابته .

مَلَلٍ ، من مكة على سبع ، ومن المدينة على لَيْلَةٍ ، وهو الى جانب مَثْغر . كذا جاء في معجم البلدان ، ولكن البكري سمّاه : مَشجَر ، (وقــد تقدم) ولا شك ان احد الاسمين تصحيف للثاني ، ولعل الصواب ما ذكره البكري .

● ـ مُنْشِد ـ بالضم وكسر الشين ـ . موضع بين رضوى ، وبين الساحل ـ ذكره ياقوت .

● ـ نَاصِفَهُ . من اودية القَبَلِيّةِ .

● ـ النصب ذا النُّصُب . ورد ذكرها في اقطاع الرسول صلى الله عليه وسلم بلال بن الحارث المزني ، معادن القبليــة .

● ـ النِّصْع : بكسر النون بعدها صاد فعين مهملتان ـ وهو في اللغة كل لون خالص البياض او الحمرة او الصفرة ، وهي جبال سود بين ينبع والصفراء لبني ضمرة ، كذا قال ياقوت ـ ثم انشد قول مُزَرِّد :

اتاني واهلي في جُهَيْنَة دارهم
بِنصعٍ ، فَرضوى ، من وراء المرابدِ

تأوّه شيخٍ قاعـــدٍ ، وعجُوزِهِ
حزينين بالصلعاءِ ، ذات الاساودِ

وقول مُزرِّد يدل على انَّ النَّصع من دار جهينة .

● – نَلى : وادٍ من اودية الاشعر . ولعله تصحيف تَخَلى

● – وَدَّان : قرية جامعة من نواحي الفرع بينها وبين هَرْشا ستة اميال ، وبينها وبين الابواء نحو ثمانية اميال ، قريبة من الجحفة — هذا بعض ما جاء في معجم البلدان من تعريفها ، اي انها تقع في الطريق بين مكة والمدينة قبل رابغ (الجحفة) لقاصد مكة من المدينة ، وها هي المسافة بينها وبين المدينة على ما جاء في معجم ما استعجم للبكري (مادة العقيق) قال :

من المدينة الى ذي الحُليفة	٦ او ٧ اميال
من ذي الحليفة الى الحفير	٨ »
من الحفير الى مَلل	٨ »
من ملل الى السيالة	٧ »
من السيالة الى الروحاء	١١ ميلا
من الروحاء الى الرويثة	٢٤ ميلا
من الرويثة الى اثاية العرج	١٤ ميلا

من اثاية العرج الى السقيا	١٧ ميلا
من السقيا الى وَدّان	٨ أميال
من ودّان الى هرشى	٥ »
من هرشى الى الجُحفة	ميلان

وودّان على مـــا اوضح عرّام بن الاصبغ السلمي اسفل من هَرشى مـــما يلي المغرب ، يقطعها المصعدون من المدينة ، وينصبون فيها منصرفين الى مكة ، ويتصل بها مما يلي المغرب عن يمينها بينها وبين البحر خبتٌ .

ومن ودّان : الشاعر نُصيب ، ومن شعره .

قفـــوا حدّثوني عن سليمان إنني
لمعروفه من أهل (ودّان) طالبُ

فعاجوا فأثنوا بالذي أنتَ أهـلهُ
ولو سكتوا أثنتْ عليـك الحقائبُ

ونقل ياقوت عن ابي زيد البلخي قوله . ودّان من الجحفة على مَرحلة ، بينها وبين الابواء ، على طريق الحـــاج ، في غربيّها ستة اميال . وبها كان في ايام مقامي ، رئيس للجعفريين

ابناء جعفر بن ابي طالب، ولهم بالفُرْع والسائرة ضياعٌ كثيرة، وبينهم وبين الحسنيين حروب ودماء، حتى استولى طائفة من اليمن، يعرفون ببني حرب على ضِياعهم، فصاروا حَرْباً لهم، فضعفوا .

وانتقال بني حَرْب الى هذه النواحي كان في سنة ١٣١ هـ على ما ذكر الهمداني في كتاب الاكليل (١) .

ان ودّان هذه تقع في أسفل الفُرْع، على خط عرض ٦ /٢٣ شمـــال خط الاستواء، وعلى خـــط الطول ٣ / ٣٩ شرقي جرينتش وتبعد عن المدينة بما يقارب الـ ٢٥٠ كيلًا، وهـــذه المسافة لا تتفق مع ما ذكر البكري، ومن المعلوم ان تحديد البكري على اساس طرق القوافل، وفي عهد كانت تلك الطرق يعترضها منعطفات، وعقبات، وهي تتبع ما سهل سلوكه من الارض، وقد تغيرت حالة الطرق في العهد الحاضر .

● ـ وَسْوَس ـ من الوسواس ـ من اودية القبلية، يصب

---

(١) الاكليل « ج ١ ص ٣٠٧ »

من الاجرد ، على الحاضرة والنكباء ، وهـــما فرعان بهما نخل لجهينة وغيرهم - عن السمهودي .

● - الوَشَل : ماء بطرف جبل َعذ َمرَ الشامي في الاشعر .

● - هُزَر : من أودية الأجرد التي تصب في الغور ، لبني عثم من بني مالك من جُهينة .

● - يَلْيَل : وادٍ ينحدر من الصفراء ، ثم تجتمع فيه سيول بَدْر وما حوله ؛ ويتجه مغربا بميل نحو الجنوب حتى يصب في البحر ، في موضع يدعى الرايس ، وهو موقع الجار مينـاء المدينة المعروف قديماً .

وله ذكر في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد جـاء في السيرة - في خبر غزوة بدر : ان قريشاً نزلوا بالعدْوة القُصوى من الوادي خلف العقنقل ، ويليل ،بـين َبدْر وبين العقنقل ، الكثيب الذي نزلت خلفه قريش ، والقليب ببدر من العـدوة الدنيا من بطن يليل الى المدينة .

اي ان يليل هو وادي بدر .

وقد ذكر المتقدمون انه يصب في البحر عند ينبع ، في غيقة

ـ جاء هذا في رسالة عرّام، ونقله البكري وياقوت في معجميهما ولكن مصب الوادي ـ كما يبدو من المصور الجغرافي يقع جنوباً عن ينبع .

● ـ ينبع . ناحية واسعة ذات قرى وعيون ، واودية وقد افردنا لها بحثاً خاصاً .



استدراكات

الاول : حول السيد جعفر البيتي

جاء من الصفحة الا ٩٦ ـ ان السيد البيتي كان قد مر بهذه المدينة .

والصواب : انه كان موظفاً فيها ، فقد ترجمه الجبرتي في تاريخه ترجمة مطولة ، ومما جاء فيها قوله عنه : (ولي كتابة الينبع ، ثم وزارة المدينة) .

وقد اورد قصيدته ضمن ما ورد من شعره ونثره اوردها في ٥٢ بيتاً .

ومما جاء فيها ، مما لم يتقدم ذكره قوله :ـ

واصبحت في دار المشقة والعنا
أخالطُ أوغاد الورى ورعاعه

وكلباً من الاعراب يعوي كأنه
يريد اذا لاقى الامين ابتلاعه

فلو صاح فوق الصخر خرّ لوقته
وابصرت من ذاك الصياح انصداعه

براه اله الخالق للناس نقمة
وقدّ من الصخر الاصم طباعه

---

(١) تاريخ الجبرتي « ٣١٨/١ الى ٣٣٤ »

فلا رَحِم الرحمٰن أرْضاً يَحُلُّها
وباعد عنّا بالسنين انتجاعَهُ

ومن كل جبّار عنيد يرى الورى
عبيداً لديه ، والبقاعَ بقاعَهُ

شقيٌّ عصى الرحمن في كل أمره
ومال الى شيطانه وأطاعهُ

فقُلْ لرعاة الوقت : إن نعاجَكُمْ
اتاح لها ريبُ الزمان سباعَهُ

فهل لكمُ في لَمّ شملِ الذي بقي
برأي بديع تحسنون ابتداعَهُ

وإلا فإن الامرَ لله كُلُّه
ولا رأي في خرقٍ يريد اتّساعَهُ

سَلَوْنا عن الدنيا ، فكل نعيمها
متاع غرورٍ ، لا يدوم متاعُهُ

وما اعتضتُ من كوني أديباً وفاضلاً
لدى الناس الا قوله وسماعَهُ

ومن كان يرجو في الامانة مغنما
فخلوا له أوضاعه وخراعه
وقولوا له : هذاك ينبع حاضر
لمن رام يبلو ضره وانتفاعه
فكم كاتب افنى اليراع كتابة
ومل والقى في اليراع كتابه
وكم بدوي داسه فوق بطنه
ومزق ما بين الانام رقاعه

ومن جاءكم منا مع الليل شارداً
فذاك لهول واقع فيه راعه
ومن يمتنع عن خدمة مثل هذه
(فلا تنكروا اعراضه وامتناعه)

فما يكسب الكيال الا غباره
ولا الكاتب المسكين الا صداعه

وهذه الابيات تصور جانباً من حياة البيتي ، وما قاساه في تلك البلدة ، من المشقة ، والاهانة من رؤسائه ومن غيرهم . واذن فلا لوم عليه وقد قاسى ما صوره ان ينظر الى تلك البلدة الطيبة نظرة خاصة ، من زاوية خاصته .

٢ ــ جيش محمد علي ينهب ينبع ، ويَسْبي أهلها .

في الصفحة الـ (٨٧) اشاراتٌ عن قيام محمد علي باشا بغزو البلاد سنة ١٢٢٦ هـ .

ومما ينبغي ان يضاف الى ذلك ، ما قام به الجيش الذي بعثه محمد علي باشا الى ينبع ، من ضروب العبث والفساد والقتل والسبي في تلك البلاد .

ولندع الجبرتيّ – وهو مؤرخ معاصر لما حدث يتحدث عن تلك الحادثة .

قال – بعد ان اشار الى ان الشريف غالباً شريف مكة ، كان يقف موقفاً مُذَبذباً ، بين الدولة السعودية التي هو تحت حكمها ، وبين الغازي الجديد ، بل ذكر انه كان يكاتب كلا الفريقين مُظْهِراً الموافقة لكل واحد منهما ، ولندع هذا ، الى ما نحن فيه .

قال الجبرتي : – في حوادث سنة ١٢٢٦ هـ ــ جاء الخبر بأن العساكر البحرية ملكوا ينبع البحر ، ونهبوا ما كان من

ودائع التجار وذلك انـــه كان برساة ينبع عـدة مراكب وداوات .. وارسل الشريف غالب الى المراكب الكائنة برساة الينبع بأن ينقلوا ما فيها من مال التجار وغيرهم ، ويودعوه قلعة الينبـع تحت يد وزيره ، وترك معه نحو خمسمائة من عسكره ، واخذ المراكب فأوسقها من بضائعه وبُهَارِه وبُنّه ، وارسلها الى السويس لتباع بمصر ، ثم توسق بمهات العساكر البحرية ، فلمـا وصلت مراكب العساكر البحرية وألقت مراسيها قبالة الينبـع احتاجوا الى الماء ، فلم يسعفوهم بالماء ، فطلع طائفة من العسكر الى البرّ في طلب عين الماء ، فمانعهم مَنْ عندها مُرابط فقاتلوهم ، وطردوهم ، ومنعوهم عن الماء وفي حالة رجوعهم رَموْا عليهم من القلعة المدافع والرصاص ، والحال ان الامر مُبْهمٌ على الفريقين فعند ذلك استعدت العساكر لمحاربة من بالقلعة ، فملكوا القلعة وقتلوا من كان بها ولم ينج منهم الا الوزير ومعه ستة انفـار ، خرجوا هاربين على الخيول ونهبوا كل ما كان بالينبـع مـن الودائع والاموال والاقمشة والبُنّ ، وسبوا النساء والبنـات الكائنات بالبندر ، واخـذوهن أسرى وبيّعُوهنْ على بعضهم البعض .

ووصل المبشرون بذلك في عشرين رمضان سنة ١٢٢٦ هـ . فضربوا لذلك مدافع من القلعة كثيرة ، وعملوا شكا . وطافت

المبشرون على بيوت الاعيان وارسلوا بالبشارة شخصاً كبيراً الى اسلامبول يبشرون اهل الدولة وسلطان الاسلام وكان ذلك اول فتح[1]) .

مُسلمُون يقتلون ظلماً ، وتسبى نساؤهم وتنتهك حرُماتهم ثم تُقابَلُ هذه الافعال التي تَقشعر لها الاجساد من رجال الدولة التي تدّعي الاسلام ــ بَلْ من سلطان الاسلام كما يعبّر المؤرخ ــ بالفرح والاستبشار !!

---

(۱) تاريخ الجبرتي « ٤/١٣٥ و ١٣٦ » .

فهرس الكتاب

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة